العثمانيون
فى
الميزان الإسلامى والعربى

بحوث ودراسات فى تاريخ الدولة العثمانية
والعالم العربى

إعداد
الدكتور / عبدالمنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

الطبعة الثانية
٢٠١٦

رقم الايداع: ٨٥٩٧/٩٥
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-5399-06-8

تمهيد

تختلف الروايات حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "غز الخزر" وهى قبيلة "قابى خان[1]" التى كان يتولى أمورها سليمان شاه وكان موطنها الأصلى أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولى صوب آسيا الصغرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . وخلال ذلك توفى "سليمان شاه" ، وتولى ادارة هذه القبيلة ابنه "أرطغرل" . وفى أثناء تنقل هذه القبيلة بحثاعن المأوى ومصادر العيش شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت ان أحد هذين الجيشين ليس ندا للآخر فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كاد يلقى هزيمة مروعة – من جانب باب النجدة – وكان انضمامها إليه سببا فى انتصاره . وبعد المعركة تبين أن هذه القبيلة تدخلت لنصرة بنى جلدتها وهم الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون تحت قيادة سلطانهم علاء الدين ، وأنهم كانوا يحاربون إحدى الفرق المغولية التى أوكل إليها استكمال فتح آسيا الصغرى[2] . ونتيجة لذلك استجاب السلطان علاء الدين لطلب "أرطغرل" بأن يمنح قبيلته مكانا تستطيع العيش والاستقرار فيه[3] ، فأمر باقطاعه عدة أقاليم ومدنا ، وصار يعتمد عليه فى حروبه . وكان يقطعه أراضى جديدة عقب كل انتصار يتمكن من تحقيقه ويمنحه أموالا جزيلة . يضاف إلى ذلك أنه لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما فى مقدمة جيوشه . وظل "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين إلى أن توفى فى عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م فعين علاء الدين أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانية[4] .

---

١ – عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ ص ١١ .

٢ – عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ٣٣-٣٤ .

٣- Edward , S. Creasy : History of the ottoman Turks , Beirut, 1968 , P. 2-4 .

٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ/١٩٨١م ص ١١٥-١١٦ .

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد حيث استولى على قلعة "قوجه حصار" التى كانت تابعة للروم وذلك فى عام ١٢٨٩م ، وقد كافأه السلطان علاء الدين على ذلك بأن سمح له بضرب "السكة" باسمه ، وأمر بأن يذكر اسم عثمان بجانب اسمه فى خطبة الجمعة ، ومنحه كل الأراضى التى تم له فتحها ، وكذلك الأراضى التى سيتمكن من فتحها بعد ذلك مما تسبب فى ذيوع صيت عثمان . ولعل السبب الذى دفع السلطان علاء الدين إلى ذلك هو أنه أراد أن يجعل من عثمان وقبيلته قوة للدولة السلجوقية التى بدأ الضعف يتسرب إليها .

وبعد سقوط دولة سلاجقة الروم على يد المغول فى عام ٦٩٩هـ ، ووفاة السلطان علاء الدين انفتح المجال أمام "عثمان بن أرطغرل" الذى استقل بما تحت يده من بلاد ، واتخذ من مدينة "ينى شهر" عاصمة له ودعا نفسه "باد شاه عثمان(١)" أى سلطان العثمانيين.

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون فى عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ، وبعد وفاة عثمان فى عام ١٣٢٦م واصل ابنه أورخان، ومن جاء بعده السير على سياسته ، واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت امبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا ، وأوربا وافريقية ، وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وألبانيا وبلغاريا والمجر والبغدان ، وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك فى مجال الحرب أو فى مجال السلم . لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطانا كان منهم

---

١ - سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م ص ٢١ - ٢٢ .

من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد على هدم هذه الدولة ودك أركانها .

وسيلاحظ القارئ لهذا الكتاب انه يحوى العديد من البحوث والدراسات العلمية لبعض القضايا والمشكلات التى لازمت تاريخ الدولة العثمانية ليس خلال فترة قوتها فحسب بل وخلال فترات ضعفها أيضا .

فقد شملت هذه الدراسة موضوعات متعددة بدأت بفتح القسطنطينية على يد محمد الثانى فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتطرقت إلى موقف الدولة العثمانية من سقوط الأندلس .

وإلى الانكشارية وأدورهم فى الفتوحات التى قامت بها الدولة حتى تم القضاء عليهم بعد أن دب الضعف والفساد فى نظامهم . كما تطرقت إلى الفتح العثمانى للعالم العربى والحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية ، وتناولت السلطان عبد الحميد الثانى ودعوته إلى فكرة الجامعة الإسلامية حتى تم اسقاطه واستيلاء جماعة الاتحاد والترقى على الحكم ثم قيام الحرب العالمية الأولى .

وتأتى البحوث إلى نهايتها مع دراسة نقدية بعنوان "الدولة العثمانية ما لها وما عليها" أوضحنا فيها المناقب والمآخذ التى أخذت على العثمانيين بشكل يتمشى مع منهاج البحث التاريخى .

والله ولى التوفيق ..

أ. د. عبد المنعم الجميعى
القاهرة – مدينة المهندسين
أغسطس ١٩٩٥

الموضوع الأول

السلطان محمد الثانى وفتح القسطنطينية

تسابق المسلمون إلى فتح القسطنطينية منذ أن فتح العرب بلاد الشام[1] ، وذلك مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش[2]" ولكن كل محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح حتى قيض الله الأمر للسلطان العثمانى محمد الثانى فتمكن من فتحها ، وفيما يلى نعرض لهذا السلطان ، ولذلك الفتح .

أولا : السلطان محمد الثانى : -

ولد السلطان محمد الثانى فى السادس والعشرين من شهر رجب ٨٣٣هـ الموافق للعشرين من أبريل ١٤٢٩م ، وقضى أيام طفولته الأولى فى "أدرنه" تحت رعاية والده السلطان مراد الثانى الذى اهتم بتكوينه عسكريا فعلمه فنون الفروسية والحرب ، كما اهتم بتلقينه مبادىء الدين الإسلامى حتى يزيل تأثير أمه النصرانية عليه[3] .

وقد تولى محمد الثانى السلطة فى عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م بعد تنازل والده عنها ، ومبايعة أهل الحل والعقد له فأصبح بذلك السلطان السابع الذى يعتلى عرش السلطنة العثمانية[4] ، وكان عمره وقتئذ لا يزيد عن الثانية والعشرين[5] .

وقد تميز محمد الثانى بكفاءته ، وشجاعته ، وذكائه ، وشدة حرصه على الثقافة ، وحبه للعلوم والفنون ، ومما يذكر عنه أنه كان يجيد عددا من اللغات منها التركية لغته

---

١ – لتفاصيل ذلك انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجبل ، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م ص ٦١ .

٢ – ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) .

٣ – د. عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، دار القلم ، ١٩٧٥م ص ٣١ .

٤ – محمد فريد : المرجع السابق ص٥٨ .

٥ – ابراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ، ١٩٠٥م ص ٦٣ .

الأساسية والعربية والفارسية والعبرانية ، واليونانية ، واللاتينية ، واتصف أيضا بالموهبة الشعرية وبأنه كان نصيرا للعلوم ، هذا إلى جانب قدرته العسكرية والميدانية(١) فقد خاض محمد الثانى العديد من المعارك والحروب ضد أعداء الدولة ، واستولى على الكثير من البلدان ، وحاصر العديد من المدن ، وكان حلمه الذى يراوده دائما هو فتح القسطنطينية(٢)، ولعل السبب المباشر والرئيسى الذى دفعه إلى الإسراع فى ذلك هو أن الامبراطور البيزنطى "قسطنطين باليولوجس" كان قد انتهز فرصة وفاة والد محمد الثانى وقام بأعمال استفزازية رشح من خلالها أحد أمراء آل عثمان لكى يتولى عرش أدرنة . ونتيجة لذلك شيد محمد الثانى قلعة كبيرة سميت "روميلى حصار" لمحاصرة القسطنطينية، كما أخذ فى فتح العديد من البلدان المجاورة للقسطنطينية ليجعل جميع أراضى سلطنته متصلة ببعضها ، لا يتخللها أى حاجز ، هذا إلى جانب قيامه بتحصين مضيق البسفور لمنع أى امدادات تأتى من مملكة طرابزون لمساعدة البيزنطيين على فك الحصار(٣) .

ثانيا : فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م :

جذبت القسطنطينية أنظار العالم من كل حدب وصوب نظرا لموقعها الجغرافى الهام الذى كانت تشغله والذى يربط آسيا بأوربا عن طريق مضيق البسفور الذى يصل البحر المتوسط بالبحر الأسود عن طريق بحر مرمرة ، ويشكل مضيق البسفور أهمية كبيرة حيث إن أقرب مسافة فيه بين الشاطئين ألف متر فقط .

قال نابليون بونابرت عن مدينة القسطنطينية "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها(٤)" .

وقال عنها مؤلف كتاب دليل الآستانة "إن المسافر إلى تلك العاصمة بحرا لابد له من المرور فى أحد البوغازين : بوغاز القلعة السلطانية الذى يقال له الدردنيل ، وبوغاز الآستانة الذى يقال له البسفور ، والآستانة قائمة على مفرق البرين أوربا وآسيا ، ويفصل بينهما من الجنوب بوغاز الدردنيل ومن الشمال البسفور الجميل .. وبين البوغازين بحر صغير هو بحر مرمرة ، وهذا البحر يتصل شمالا بالبحر الأسود ... وجنوبا ببحر الأرخبيل – وهو جزء من البحر الأبيض المتوسط(٥) .

١ – أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، ص ٦٥ .

٢ – عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣م ص ٤٨ .

٣ – محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤ – على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٥ – م . شكرى : دليل الآستانة ، الاسكندرية ، ١٩٠٩م ص ٣-٤ .

وتميزت القسطنطينية أيضا بحصانة أسوارها العديدة إذ إن هناك سورين من أسوارها طولهما أربعة أميال بين شواطىء بحر مرمرة والقرن الذهبى ، أما السور الداخلى فارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين قدما ، ويوجد بين السورين الداخلى والخارجى فضاء ترابى يصل عرضه إلى ستين قدما ويوجد بالسور الخارجى عدة أبواب منها باب أدرنة وباب المدفع (طوب قبو) والباب العسكرى[١].

ولقد مر فتح القسطنطينية بعدة مراحل هى : –

أ – مرحلة الحصار :

وقد بدأ السلطان محمد الفاتح التأهب والاستعداد التام لفتح القسطنطينية قبل عام كامل من بداية حصاره لها حيث قام بمحاصرة أبواب المدينة الثلاثة الكبرى[٢] . وعقد محمد الفاتح عدة اتفاقيات مع حكام الدول المجاورة له ، ثم قام ببناء قلعة هامة على شواطىء البسفور فى يابس أوربا وأطلق على هذه القلعة اسم "روم إيلى حصار" وكان موقعها على مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات قرب القسطنطينية . وقصد الفاتح من بناء هذه القلعة رد أى محاولة لوصول الامدادات للبيزنطيين ، وقد شارك الفاتح عمال البناء فى تشييد تلك القلعة التى انتهى العمل بها فى شهر شعبان من عام ٨٥٦هـ الموافق ١٤٥٢م ، وكانت هذه القلعة مثلثة الشكل ، وفى كل زاوية منها برج كبير للمراقبة ، كما نصبت عليها المجانيق، والمدافع الضخمة لمنع السفن المعادية من المرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة المقررة[٣] . ونتيجة لذلك بدأ الامبراطور قسطنطين الحادى عشر يشعر بالخطر المحدق، وأن زوال عاصمته فى طريقه إلى التحقيق ، فحاول تدارك الأمر بأن أرسل إلى محمد الفاتح بموافقته على دفع الجزية ، وبأن يتزوج من والدته[٤] ، ولكن السلطان العثمانى رفض كل هذه المساومات وآثر عليها فتح المدينة ، مما اضطر قسطنطين إلى طلب المعاونة من ملوك وحكام أوربا لرد الخطر المحدق على بلاده[٥] .

١– عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٨٦–٨٨ .

٢– سيد رضوان على : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامى فى أوربا الشرقية ، جدة ، الدار السعودية للنشر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٢٤ .

٣– عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٣–٧٧ .

٤– أرملة مراد الثانى التى ظلت على نصرانيتها ، وكانت آنذاك تناهز الخمسين من عمرها .

٥– على حسون : المرجع السابق ص ٣٣–٣٤ .

ب - مرحلة الاستعدادات :

طاف المخترع المجرى المدعو "أوربان" أشهر صانع للمدافع فى زمانه ببعض بلدان أوربا يعرض على حكامها وملوكها اختراعاته[1] فلم يلتفت إليه أحد بما فى ذلك الامبراطور البيزنطى قسطنطين المحاط بالخطر الإسلامى .

ولما عرض أوربان اختراعاته على السلطان محمد الفاتح مده بالمال ، وقبل تنفيذ اختراعه ، ووفر له كل متطلباته فقام أوربان بتصميم مدافع ضخمة كان من أبرزها مدفع كبير يزن ٧٠٠ طن ، وتزن قذيفته ١٢ ألف رطل ، ويجره ١٠٠ ثور ، و١٠٠ رجل من الأقوياء[2] ليتمكنوا من سحبه ، وكان مدي مرماه أكثر من ميل[3] ، وكان يلزم له نحو ساعتين لسحبه[4] . وقد قطع هذا المدفع المسافة بين أدرنة والقسطنطينية فى شهرين.

وقد أسمت المصادر الافرنجية هذا المدفع باسم المدفع السلطانى أو "المحمدية" "Mohametta"[5] . يضاف إلى ذلك أن محمد الفاتح تمكن من بناء مجموعة من السفن، ووضعها فى بحر مرمرة لتكون حاجزا لسد مضيق الدردنيل ، ووصل عددها ما بين ٢٥٠-٤٠٠ سفينة . وأمام هذه الاستعدادات الواضحة من قبل العثمانيين اضطر قسطنطين إلى الاستنجاد بملوك أوربا وحكامها وكان من بين الذين لبوا طلبه أهالى جنوة، فأرسلوا إليه أسطولا بحريا بقيادة جستنيانى[6] ، وقد كلفه الامبراطور قسطنطين بمهمة الدفاع عن الأبواب الهامة والنقاط الخطرة .

وخلال ذلك الوقت تمكن محمد الفاتح من عقد الصلح مع أمراء المناطق المجاورة له ، وظل حوالى ثمانية أشهر كاملة يجمع المواد والمؤن والرجال ويدربهم ، واستعان بمجموعة من الصناع ليصنعوا له الأسلحة والمدافع ثم بدأ بعد ذلك فى محاصرته القسطنطينية بواسطة مائة وأربعين ألف مقاتل[7] .

١- سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م ص ٩٠ .

٢- على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ ، وذكر لوثروب ستودارد أن العدد كان ٧٠٠ رجلا . انظر حاضر العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نويهض - المجلد الأول جـ٢ ، البابى الحلبى ١٣٥٢هـ ص٢٢٠.

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤- لوثروب : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

٥- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٤ .

٦- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٧- ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ٢٣ - ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة ، الادارة الثقافية للجامعة العربية ص ٣٦ . وقيل إن عدد المحاصرين بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل .
انظر لوثروب ستودارد : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

جـ - مرحلة بدء القتال :

بدأ زحف الجيش الإسلامى صوب أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح الذى كان فى طليعة جنوده ، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام :

١ - **الميمنة** : وكانت مؤلفة من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك ، وكان مركز عملياتها يمتد من الساحل الجنوبى عند بحيرة مرمرة حتى باب "طوب قبو" .

٢ - **الميسرة** : يتألف مجموع جنودها من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظاميين ويقوده "قره جه باشا" ويكون امتداد هؤلاء الجنود عند سور القسطنطينية الشمالى فى ميناء القرن الذهبى حتى "باب أدرنة" .

٣ - **القلب** : وهو مؤلف من جنود الإنكشارية إضافة إلى الفرق الخاصة التى اختارها محمد الفاتح وهى فرق انتحارية ، وكان يقود هذا الجزء من الجيش محمد الفاتح بنفسه ، ومكان هؤلاء الجنود أمام الجزء الأوسط من السور ، ويمتد من باب طوب قبو حتى يصل "باب أدرنة(١)" . وتمركز أفراد هذا الجيش أمام بوابات القسطنطينية . هذا إلى جانب قيام الأسطول العثمانى بتطهير بحر مرمرة من السفن البيزنطية ، واحتلاله لبعض الجزر .

وبعد كل ذلك بدأت المدافع العثمانية تدك بقذائفها أسوار القسطنطينية حتى أحدثت فيها ثغرة تمكن البيزنطيون من سدها . وقد حاول الأسطول العثمانى محاولات جادة لتحطيم السلسلة الحديدية التى تقع فى مدخل القرن الذهبى ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، إضافة إلى فشله فى التصدى لعدد من السفن التى أرسلها بابا روما محملة بالعتاد الحربى والمؤن حيث نشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت الهزيمة فيها فى جانب العثمانيين(٢) . وأمام هذا الفشل لم تلن عزيمة المسلمين عن السعى إلى تحقيق النصر ، وكان ذلك الفشل دافعا قويا لهم للتمسك بالعزيمة ، ومواصلة العمل ، وهذا كان من أبرز الصفات التى اتصف بها العثمانيون(٣) ونتيجة لذلك فكر السلطان محمد الفاتح فى طريقة أخرى يدخل بها سفنه إلى داخل القرن الذهبى دون أن تعوقها السلسلة الضخمة الموجودة هناك وذلك عن طريق نقل سفنه برا بمقدار ثلاثة أميال من بحر مرمرة حتى تصل مياه القرن الذهبى(٤) عبر برزخ ترابى خلف مستعمرة "غلطة" فأمر جنوده بتركيب بعض العجلات الصغيرة فى سبعين من سفنه ، كما أمرهم بتعبيد الأرض وفرشها بألواح خشبية

١- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٨٨ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٩ ، ومحمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٣- على حسون : المرجع السابق ص ٣٦ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

مدهونة بالزيت والشحم[1] ، ثم زلجت السفن على طول هذا الطريق وفوق تلك الألواح ، واستطاع خلال ليلة واحدة أن يدخل سبعين سفينة إلى تلك المياه ، وخلال ذلك كانت المدفعية العثمانية تطلق نيرانها على مدينة القسطنطينية لحماية تنفيذ تلك الفكرة[2] . وخلال الصباح فوجئ البيزنطيون بالأمر ، وتأكدوا من نجاح العثمانيين في محاصرتهم من كل جانب ، ومع ذلك فقد ظلوا في دفاعهم المتواصل عن مدينتهم ، فقاد الامبراطور قسطنطين مجموعة من المقاتلين ، وأخذوا في ترميم تحصينات مدينتهم المتهدمة ، وإعداد كافة وسائل الدفاع الممكنة عنها . وخلال ذلك أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الامبراطور قسطنطين يدعوه إلى التسليم حقنا للدماء على أن يتعهد باعطاء الحرية الدينية للأهالي ، ولكن الامبراطور رفض ذلك وأصر على الدفاع عن مدينته حتى الموت[3] مما جعل محمد الفاتح يضاعف من نيران مدافعه ، ويأمر باستمرار الهجوم البحري والبري على المدينة المحصنة ، وحفر الأنفاق من تحت الأسوار ، كما أمر محمد الفاتح ببناء قلعة خشبية كبيرة جاوزت في ارتفاعها ارتفاع أسوار مدينة القسطنطينية ، وكانت من ثلاث طبقات كسيت بالجلود المتينة المبللة حتى لا تحرقها النار .

واستمرت مدافع العثمانيين في إطلاق قذائفها لمدة خمسين يوما في حين كان البيزنطيون وعلى رأسهم الامبراطور قسطنطين ، وقائد القوات جستنياني لا ينامون الليل ويواصلون العمل من أجل إصلاح كل ما يتهدم من الأسوار ، واعادة بنائه .

د – مرحلة الهجوم :

قبل بدء الهجوم عقد محمد الفاتح مجلسا حربيا في خيمته حضره وزراؤه ، وكبار رجال جيشه ، والعلماء والمشايخ وطلب منهم الرأي في استمرار الحصار من عدمه ، فما كان منهم إلا أن قالوا "ما أتينا هنا إلا لنموت ولا نرجع[4]" وعندئذ أصدر الفاتح أوامره إلى جنوده بالصيام لتطهير نفوسهم وتزكيتها ، وأن يطلبوا من الله العون ، وتحقيق النصر وفي تلك الليلة علت صيحات التكبير والتهليل ، وقرعت الطبول[5] وأنشدت الأناشيد الحماسية ، ثم تلا الشيوخ الآيات والأحاديث التي تحض على الجهاد وترغب فيه، وتفقد الفاتح قواته ، كما تفقد أسوار المدينة من الخارج ، وبدأ يعد لكل شيء عدته ،

١- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠ .

٢- علي حسون : المرجع السابق ص ٣٤ .

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٤- سالم الرشيدي : المرجع السابق ص ١٢٠-١٢١ .

٥- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

ثم عاد إلى خيمته ، ودعا كبار رجال جيشه وخاطبهم قائلا "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا أن الظفر العظيم الذى سوف نحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا" ثم أمرهم أخيرا أن يتمسكوا بتعاليم الشريعة الإسلامية وألا يخرجوا عليها(١) فلا يمسوا الضعفاء بأذى ويتقوا الله فى أعمالهم .

وفى صبيحة الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٤٥٣م(٢) (٨٥٧ هـ) بدأ الهجوم الفعلى على القسطنطينية(٣) ، ودوت الهتافات العالية تردد التهليل والتكبير . ثم بدأ الجنود يتقدمون بسرعة نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنزل فيهم المدافعون عن المدينة خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، ومع ذلك فقد حققوا شيئا هاما كان يهدف إليه السلطان محمد الفاتح وهو إنهاك المدافعين واستنفاد ذخيرتهم .

ثم تبع ذلك الهجوم هجوم آخر قامت به مجموعة من قوات "العاصنة" ولكنهم أخفقوا فى مهمتهم واضطروا إلى الانسحاب ، ثم جاء الهجوم الثالث وقد قام به مجموعة كبيرة من حرس السلطان ورماته إضافة إلى ١٢ ألف جندى من الإنكشارية(٤) ، وفى أثناء هذه الهجمات الثلاثة كانت المدفعية العثمانية تطلق قذائفها باستمرار ، ودون توقف من البر والبحر . وخلال ذلك استطاع أول رجل من جنود الفاتح اعتلاء السور ، وهو الجندى الانكشارى "حسن طولو" ومع أنه سقط من على السور إثر ضربة بحجر كبير ، فإنه مهد لرفقائه الآخرين الطريق حيث استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الأطراف الداخلية من السور فى الوقت الذى كانت فيه مجموعة كبيرة من الجند العثمانى بقيادة محمد الفاتح تتقدم لدخول المدينة من جهة باب السيرك الذى أهمله البيزنطيون ، وقد فوجئ بهم البيزنطيون وعلت صيحاتهم تردد كلمة "Polis Healo He" ومعناها احتلت المدينة(٥). وبدأت أعلام العثمانيين ترتفع فوق الأبراج من جهة "باب أدرنة" ومن جهة السور الذى يطل على مياه القرن الذهبى ، وامتد القتال العنيف داخل شوارع المدينة ، وسقط قسطنطين آخر الأباطرة البيزنطيين متخبطا فى جراحه ، وقبله أصيب جستنيانى

١- حسون : المرجع السابق ص ٣٩ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٢ .

٣- Edward Creasy : History of the Ottoman , P. 83 .

٤- برنارد لويس : استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان على - جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٢م ص ٢١ .

٥- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

قائد القوات ، وهرب إلى إحدى الجزر البعيدة عن المدينة[1] .

وبعد ساعات من إحكام سيطرة العثمانيين على الموقف دخل السلطان محمد الفاتح إلى المدينة ، وهو راكب جواده وحوله حرس الانكشارية ، وكبار رجال دولته ، وتوجه قاصدا كنيسة أيا صوفيا ، ثم نزل من على جواده ، وسجد لله شكرا على هذا النصر الكبير ، ودعا بالرحمة للشهداء من جنوده ، وبعد ذلك دخل الكنيسة وأمر بتحويلها لتكون الجامع الرئيسى بالمدينة[2] ، ودعا أحد الأئمة ليصعد المنبر ويجهر بالعقيدة الإسلامية ، فصعد الامام معلنا "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله[3]" وبعد ذلك صليت أول جمعة فيه .

كما أمر محمد الفاتح باقامة العديد من المنشآت الإسلامية فى المدينة فتأسس الجامع المعروف باسم جامع محمد الفاتح ، وأيضا الجامع المشيد قرب ضريح أبى أيوب الأنصارى وإلى جانب ذلك أعلن محمد الفاتح عدم معارضته فى إقامة الشعائر المسيحية، وضمان حرية النصارى الدينية ، والمحافظة على أملاكهم[4] .

وهكذا ارتفعت رايات الإسلام خفاقة على القسطنطينية وتحققت معجزة نبى الإسلام، وسطر التاريخ لمحمد الفاتح صفحات المجد والبطولة ، فأصبح أول سلطان عثمانى يطلق عليه أهل أوربا لقب السيد العظيم ، كما أصبح مجرد سماع اسمه يثير الرعب والهلع فى نفوس أعدائه .

وبعد أن وطد محمد الفاتح مركزه بفتحه للقسطنطينية أخذ يهتم بالتعمير والبناء ، ثم عاد إلى "أدرنة" فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وبعدها ذهب إلى "بروسه" للاستجمام والراحة استعدادا لمواصلة فتوحاته فى أوربا .

وقد استطاع محمد الفاتح أن يضم إليه بلاد الصرب واليونان والافلاق والجزر الرئيسية فى الأرخبيل وبهذا وطد سيادته فى أوربا حتى أن خلفاءه لم يفتحوا بعده بلادا مثلما تحقق على يديه[5] .

١- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٤ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٣- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٣

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٥- سالم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٨٥-١٨٦ .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام بعض المؤرخين إلا أن يتخذوا من فتح القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م بداية للتاريخ الحديث ، ونقله واضحه للعالم من العصور وأنظمتها الإقطاعية إلى العصور الحديثة .

وقد جعل الفاتح من القسطنطينية عاصمة لدولته بعد أن غير اسمها إلى اسلامبول أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام[١] . واستمر الفاتح يحقق الانتصارات للإسلام والمسلمين حتى توفى فى ٣ مايو ١٤٨١م[٢] ؛ فابتهجت أوربا بوفاته وأقامت الاحتفالات ونصبت الزينات بهذه المناسبة[٣] ، فلقد استطاع أن يهز عروش أوربا ، ونجح فى تحويل الكثير من سكان جنوب شرق أوربا إلى الإسلام ، وجعل معظم الطرق التجارية البحرية الهامة خاضعة لسيطرة العثمانيين[٤] .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٢- Edward Creasy : OP. Cit , P. 92 .

٣- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٣١ .

٤- ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٨ .

الموضوع الثانى

موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى استمرت قواعد المسلمين فى الأندلس تتساقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القلائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وايزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام فى الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التى كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام فى أسبانيا ونواة التحرك الإسلامى تجاه أوربا والذى بدأت طلائعه فى الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت أسبانيا النصرانية فى ذلك الخلاف الداخلى الذى دب بين الأسر الحاكمة فى غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغلبة نفوذ النساء على الحكام ، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها[1] .

وفى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا يناشدونها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها واسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوربا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين فى أى مكان مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرئب إليها لانقاذهم من محنتهم وليحتفظوا بالأندلس للمسلمين .

١- للتفاصيل انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ٤ ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ص ١٦٢ وما بعدها .

وكانت هناك دولة المماليك الشراكسة فى مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوربا تخشاهم ، وتعمل لسلاطينهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون فى البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات فى الأندلس ، ويرغبون فى وقف أطماع الممالك المسيحية النامية فى شبه جزيرة إيبريا ، وقد تمثل ذلك فى الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتى كان من أهمها قيام المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربى يعقوب بن عبد الحق المرينى بارسال جيش جرار فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس فى الانتصار على نصارى أسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على انقاذهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة أخوانهم فى الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التى وقعت للمسلمين فى الأندلس كانت تملأ بلاط حكام القاهرة والآستانة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف[1] .

وحتى تتضح لنا الأمور سنعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التى باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملفتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لانقاذهم[2] ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشدتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص١٣٨ .

٢- عبد الجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى . المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بايزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة رسولا إليه يلتمس منه النجدة لانقاذ بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى[1] كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستنجده لانقاذهم والدفاع عن حرمات المسلمين[2] .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بايزيد لهذه الاستغاثة . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى المياه الأسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر[3] . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس .

والواقع ان إرسال أسطول عثمانى لمساندة أهل الأندلس فى محنتهم لم يثبت تاريخيا وان كان هناك بعض المصادر الثانوية التى أشارت إلى ذلك[4] . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليست البحرية . يضاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة[5] وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشاطىء ، والذين كانوا فى حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فان السلطان بايزيد كان ميالا للسّلم أكثر منه للحرب ، وفى عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى تبرئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا فى نصرة اخوانهم فى الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم المتهرئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ص ٩٠٣ .

٢- شهاب الدين المقرى التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٣- ستانلى لين بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحى فرزات ص٦٥ .

٤- ذكر ستانلى لين بول ان السلطان العثمانى ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد فى المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى التنويه بنجدة قدمها السلطان لمسلمى الأندلس .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

والواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت منشغلة فى حروب متعددة مع النمساويين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استعدادات بحرية مجدية لنقل الجنود من أقصى شرق أوربا إلى أقصى جنوبها الغربى شبه جزيرة إيبريا ليحاربوا حربا وسط اقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى الصليبية فى الشمال[١] .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لانقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقى مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبى المحدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة[٢] إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون[٣] يوضح له فيها الأحوال التى آلت إليها الأندلس وما يضمره النصارى من شر ، ويناشده المساعدة لانقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله[٤] .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنى عشر يوما[٥]. ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية – دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥٠-٥١ .

٢- عن فحوى هذه الرسالة انظر: المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ – تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٣٢١-٣٢٦ .

٣- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أواخر عام ٧٤٢هـ .

٤- نفح الطيب ص ٣٢٦ .

٥- انظر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

نصر(١) حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلائى(٢) سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتى يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم(٣) وكان رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة ووعد بمخاطبة العثمانيين(٤) فى مساعدة غرناطة ، وكان رد السفير على ذلك "يا مولانا السلطان ! نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ولم نجىء إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين" ولخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة(٥) . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام ايزابيلا بطلب الجزية من أميرها فى عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندى لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولاذ" واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وايزابيلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسى أبى على بن على بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى(٦) فى ذى القعدة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م يستنجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمه لمساندة أهل الأندلس(٧) فى قتالهم للمحاصرين لبلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة(٨) .

١- تذكر بعض المصادر والنصوص الأجنبية أن سلطان غرناطة فى ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر ، ولكننا أخذنا برأى المقريزى .

٢- تولى سلطنة مصر من عام ٨٤٢-٨٥٧هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) . للتفاصيل انظر السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ ص٧١-٧٤ ، وأيضا ابراهيم طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠م ص ١٤٦ .

٣- لتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ .

٤- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينها طيبة .

٥- د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق ص ١٤٦ .

٦- وثب إلى عرش مصر فى عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .

٧- أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ص٤٦٨ .

٨- محمد بن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ ص٢٤٦ .

ولما لم يكن فى مقدرة السلطان المملوكى القيام بعمل عسكرى لمساندة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلة ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول انقاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطالبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلى[1] ، وإلى بابا روما[2] للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجوان بأن يحل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم[3] ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فانه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويقبض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة[4] .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكى ، وكاتب ملك نابلى فان هذه المحاولة لم تفد بشىء .

وفى محاولة أخرى من السلطان المملوكى أمر بارسال وفد من رعاياه النصارى[5] إلى روما ونابلى ، وإلى الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا يعاتبهم على ما يحدث لأبناء دينه فى غرناطة ، ويهددهم باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا[6] وسقطت غرناطة فى صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام فى أسبانيا . ومع ذلك فان وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكى وفدا إلى أسبانيا فى عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا انوصان الثامن .

٣- ابن ايلس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م أى قبيل سقوط غرناطة . انظر عنان : نهاية الأندلس ص١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278.

٦- لم ينفذ السلطان المملوكى وعيده باتخاذ اجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بصد غارات بايزيد الثانى على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وليخبر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا بأن السلطان المملوكى سوف يقابل الاعتداء بمثله، ويثأر للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه[١] . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة اقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان فى مقدرة مصر القيام بعمل عسكرى لانقاذ أهل الأندلس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور امكانات المماليك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب فى التقاعس عن انقاذ الأندلس ، وان كان ما فعله المماليك لا يتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها[٢] .

ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب وحكامها يلتمسون نصرتهم ويطلبون منهم الغوث والنجدة غير أن الأوضاع الداخلية التى كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الأسبانى البرتغالى على السواحل المغربية كل ذلك جعل من االصعب القيام باجراءات فعالة لنصرة أهل الأندلس[٣] وانقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها كما حدث فى الماضى غير مرة[٤] فسقطت غرناطة آخر ما تبقى من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة ايبريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها يطرح سؤال نفسه لماذا لم تتآزر القوى الإسلاميه وتتفق على خطة موحدة لمساندة أهل الأندلس وانقاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضان على ذلك فيقول تعالى **"إن الله يحب الذين**

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى ، القاهرة ، دار الهداية ص ١٢-١٣ .

٢- عنان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشناوى : مرجع سابق جـ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221 .

يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ، ويقول الرسول الكريم "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار" و "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" .

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والآستانة خلال هذه الفترة كان يسودها القطيعة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مرارا عن نيتهم فى غزو مصر ، مما جعل حكام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للتقاتل بدلا من مساندة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين فى إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه إسماعيل الصفوى بطلب المساندة العسكرية من ملوك أوربا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتحالف البرتغاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه إسماعيل الأول فى مراسلات مع الامبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع فى المغرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتضح أن السبب الرئيسى فى محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوربا فى توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد اخوانهم فى الدين .

وعلى أى حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس فى أى منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامى بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقية النجدة ضد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .

الموضوع الثالث

الانكشارية

لما كان الطابع العسكرى الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تظفر هيئة بها بمثل الاهتمام الذى ظفر به الجيش العثمانى وخاصة أنها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها فى الفتوحات الحربية ، ووسيلتها فى حكم الأقاليم التى استولت عليها ، ودرعها فى الدفاع عن ممتلكاتها[١] لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثمانى بعملة نقش على أحد وجهيها لفظة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وقد اعتمد قوام الجيش العثمانى على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين ، وذلك من طريق ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة فى استانبول سماها العديد من المؤرخين "ضريبة الغلمان" وسماها بعضهم "ديوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، وتتم تنشئتهم بطريقة تتسم بالصرامة والتدريب العقلى والجسمى ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل فى مشاه الجيش العثمانى ويطلق عليهم الانكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناقهم الإسلام وإبعادهم عن بلادهم الأصلية وترسيخ الولاء للسطنة فى نفوسهم يفقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن فى امكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم أقارب بين الأهالى ولم يكن يسمح لهم بأن يبتعدوا عن ثكناتهم وبذلك توثقت روح الجماعة بينهم ، كما تعمق ولاؤهم للسلطان[٢] وصاروا لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله[٣] ، ولا

١- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Adward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

مسكنا إلا ثكناتهم العسكرية .

وترجع فكرة فرض ضريبة الغلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثانى سلاطين آل عثمان المسمى "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديه عدد غير قليل من هؤلاء الغلمان سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ، ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار الانكشارى ، وبالتدريج ازداد عدد هؤلاء وصاروا من أهم الركائز التى اعتمدت عليها الدولة فى حروبها وبسط سلطانها(١) ولكنهم صاروا بعد ذلك من أسباب تأخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتائبهم التى كانت تسمى كل منها أورطة ١٦٥ كتيبة ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل(٢)، وكانت هذه الكتائب منظمة تنظيما متشابها وتعداد كل منها متساويا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجى) يساعده ستة من مرؤوسيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقيم فى ثكنات تسمى أورطة) ولكل كتيبة شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتها(٣) ، كما كانت توضع هذه الشارات على أذرعة الانكشارية وسيقانهم عن طريق الوشم ، وهذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يلقبون بألقاب تدل على أنهم كانوا يعيشون من انعامات السلطان وأنهم كأولاده ، ومن ألقابهم "شوربجى باشى" و "عشى باشى" و "اوده باشى" و "سقا أغاسى" إلى غير ذلك من الألقاب ، وكانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمون قدور الطعام ولا يفارقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابها العار ، وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤساتهم يقلبون القدور أمام ثكناتهم(٤) .

وكانت ترقيات الانكشارية تتم طبقا لقواعد الأقدمية ، وكانت الدولة تسرح الذين تتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم ، وفى كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ٤٢ .

٢-كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .

٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ فى يونيه ١٩٨٢ ص ١٠١ مقال الدكتور علاء موسى كاظم تحت عنوان "مسئولية الانكشارية فى تدهور الدولة العثمانية" .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

وقد خصت الدولة الانكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الانكشارية بمعاقبة الأفراد المخطئين بأنفسهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاء توقع على معتادى الاجرام من الانكشارية أو ممن تتعدد حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكرى فيأمر رئيس الانكشارية باجراء عملية الخصاء الجزئى أو الكلى لمن يحكم عليهم بذلك وبمقتضاها يفقد الانكشارى رجولته ويلتحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى .

وكان رئيس الانكشارية ويطلق عليه أغا الانكشارية أو بالمصطلح التركى (ينى شرية أغاسى) من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان(١) ، كما أنه كان يعمل أيضا مديرا للشرطة فى استانبول وبجانب ذلك فانه كان بحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قواد الدولة(٢) .

وترجع أهمية الانكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفرتهم العددية ، وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون ثقلا حربيا أساسيا فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا أو هجوما سواء فى آسيا أو أوربا أو افريقية .

وقد ترجع ضراوة الانكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يفتقدون جو الأسرة التى تركو فيه شتى مشاعر الحب والعطف والحنان فنشئوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتمامهم على الاستبسال فى الحروب واسترخاص الموت . وكان الانكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم فى طليعة الجيش وقلبه فى أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه بيرق الحرب . وإلى جانب ذلك كان الانكشارية يتبعون السلطان فى تنقلاته وخصوصا أن بعضهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى(٣) وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الانكشارية سندا وعونا للدولة فى فتوحاتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تمضى قدما فى سياسة التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوربا . ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم الغرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزجون بأنفسهم فى أمر تعيين السلاطين، وتوالى تمردهم بعد ذلك فصاروا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة ، لدرجة أن بلغ بهم الأمر أنهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يغدق عليهم العطايا التى أطلق عليها كلمة البخشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية فى المسائل السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثانى ١٤٨١-١٥١٢ ، وظهر تمردهم على السلطان سليم الأول فى أثناء محاربته للصفويين فى فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة لضغوطهم(١)، وتكررت حالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك تمادوا فى مطالبهم غير المشروعة كلما آنسوا من السلطان الحاكم ضعفا ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المناصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها .

وازدادت مخاطر الانكشارية تفاقما عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشها بعد الهزائم التى حاقت بها وذلك بادخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوربية فى جيوشها ، فقد عارض الانكشارية ادخال مثل هذه النظم معاضة شديدة، وكانوا أكبر عقبات الاصلاح العسكرى فى الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة ، وبدأوا فى اعلان تمردهم وعصيانهم فى وجوه السلاطين ، فاغتالوا السلطان سليم الثالث فى عام ١٨٠٨ لاصراره على إدخال النظم العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا فى إجبار عدد من السلاطين على إلغاء هذا النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شرور الانكشارية إلى المدنيين فاقتحموا بيوتهم وانتهكوا أعراضهم ، وعمدوا إلى حرق الأحياء التى تقف أمامهم ، وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عناصر الفساد فى جسد الدولة ، رأت الحكومة إبعادهم عن العاصمة فأمرت بتوزيع فيالقهم على الحدود، كما سمحت لهم بالزواج لشغلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، وأذنت لهم بممارسة بعض الحرف والاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم ، ومع كل ذلك فقد ظل الانكشارية مركز قوة(٢) . ولما تولى السلطان محمود الثانى العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) أدرك أنه لن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا باصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى وقام الصدر الأعظم سليم

١- جلال يحى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر جـ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ص٥٨٦-٥٨٧ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيبا فبين الحالة التى وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط والقصور فى فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة . ثم أفتى المفتى بجواز العمل بمقاومة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الانكشارية على إدخال النظم العسكرية ظاهرا وأبطنوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الاصلاحات وخاصة أنها ستفقدهم سلطانهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فشجعوه على إبادة الانكشارية ، لذلك استعد لقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (آت ميدانى) الذى اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الانكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهيب نيرانها فهربوا إلى ثكناتهم طلبا للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى علّى قوتهم بصفة نهائية ، وقضى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التى كانت تساندهم ، وصدر مرسوم سلطانى بإلغاء فئة الانكشارية وملابسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك فى التاسع من ذى القعدة ١٢٤١هـ[١].

وبذلك انفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة فى الجيش العثمانى وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوربيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الانكشارية فى صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سببا فى اضعافها وازدياد التغلغل الأوربى فى ممتلكاتها.

الواقع أن القضاء الانكشارية قد أتاح الفرصة للأوربيين وغيرهم لالحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التى بدت أمامهم شبه عارية وحررهم من الرهبة منها وكان من الأجدى بالسلاطين العثمانيين القضاء على الأسباب التى أفسدت الانكشارية وليس القضاء على الانكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الانكشارية بسنوات قليلة تمكنت الروسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجباره فى عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق تنفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحيتى القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية فى موقعة نفارين البحرية فى عام ١٨٢٧م وتحطم أسطولها، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا فى الاستيلاء على الجزائر فى عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد على بحملته على بلاد الشام فى عام ١٨٣٠م ونجاحه فى إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين واعلان داود باشا والى العراق العصيان على الدولة .

١- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ١٣٤-١٣٥

ومما سبق يتضح أن الانكشارية كانوا فى بداية نشأتهم قوام الجيش العثمانى وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسى فى الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل اعلاء شأن الإسلام ، ولكن وضعهم سرعان ما تغير فدب الضعف والفساد فى نظامهم ، ووقفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثمانى كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها الاعتداء على النظام ، والتدخل فى سياسة الدولة العليا وترويع الآمنين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلاطين إلى القضاء عليهم .

الموضوع الرابع

العثمانيون والعالم العربي

• العثمانيون بين قوتين

في بدايات القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي تزعم العالم الإسلامي ثلاث قوى متميزة وهي: دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية في فارس ، والدولة العثمانية في الأناضول والبلقان . وقد استطاعت أن تمد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاظم القوتين الأخريين فقد عمل كل طرف من هذه الأطراف على إيجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطرا عليه . وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقعا ، وكان الحذر المشوب بالقلق ينتاب كلا منهم تجاه الآخر . وانتهى الأمر بتحول الجهاد الإسلامي ضد النصارى إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلي نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذي حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

أولا : الصفويون :-

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين اسحق الأردبيلي[1] (٦٥٠-٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز في إيران خلال القرن التاسع الهجري وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب[2] من جهة ، وإلى يزدجرد الساساني من جهة أخرى ، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوي دولتهم في أذربيجان عام ٩٦٠هـ/١٥٠٠م ثم بسط نفوذه في شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز[3] عاصمة لدولته .

١- أردبيل في أزربيجان .

٢- لتفاصيل ذلك انظر د. ربيع جمعه : الشاه إسماعيل الكبير ، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٣- تقع في الشمال الغربي من إيران بالقرب من الحدود التركية .

وما إن تم لإسماعيل الصفوى بسط نفوذه على إيران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة[1] فأعلن أنه سليل الإمام السابع[2] . كما أعلن أن المذهب الشيعى هو دين الدولة . ولكى يحقق أهدافه فى تحويل إيران إلى المذهب الشيعى رأى أن القوة السياسية يجب أن تساندها قوة عسكرية مخلصة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعى حتى صارت دعامة قوية وسندا للأسرة الصفوية[3] . وحارب إسماعيل الصفوى أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد فى ذلك الوقت[4] وراح يحملهم قسرا على الدخول فى المذهب الشيعى ومن أجل ذلك لم يتردد فى إفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته[5] .

وفى هذا الوقت الذى ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول أفريقية ويدخلون المحيط الهندى ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة فى التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، وتصفية الحكم العربى أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية[6] فى نظير مساعدة البرتغاليين للشاه فى اخماد ثورة مكران[7] .

١- د. أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ١٥٢ .

٢- الامام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

٣- عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٢٠-٢٢١ .

٤- أرنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ، ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨ ص ١٨٨ وأيضا د. عبد الله محمد غريب وجاء دور المجوس – الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ، القاهرة ، دار الجيل للطباعة ١٩٨١ ص ٨٠ .

٥- الساداتى : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٦- كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتداء على مكة والمدينة ولكن الله حمى بيته الحرام ومثوى رسوله الأمين .

للتفاصيل انظر ل.جى. لوريمر: الكويت فى دليل الخليج ، الكويت ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ص١٠ .

٧- أمين سعيد : الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار الكاتب العربى ص ٢٩ .

ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد وجدوا فى الدعوة الصفوية الشيعية تحديا أساسيا لهم ، وخطرا على مستقبلهم وخصوصا أن الشاه إسماعيل الصفوى بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك[١] وشرق الأناضول ، ويرسل مئات الدعاة لنشر المذهب الشيعى هناك[٢] حتى لقى هذا المذهب استجابة واسعة فى هذه المناطق[٣] . ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول - الذى تولى العرش بتأييد من الانكشارية باعتباره منقذا للامبراطورية العثمانية من الخطر الشيعى - خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوربا إلى جنوبى الأناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعى تجاه بلاده ، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة فى ٢٢ من المحرم ٩٢٠هـ ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤م قاصدا مدينة تبريز ، ولكى تنهك قوات الشاه إسماعيل الصفوى قوى العثمانيين بدأت تتقهقر أمامهم فى محاولة لاستدراجهم[٤] . واستمر الصفويون فى تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل الصفوى فى وادى شالدران (جالديران) فى ٦من رجب ٩٢٠هـ/١٥١٤م وانهزم الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية[٥] ، بعد معركة فاصلة وصفها أحد المعاصرين بقوله "كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت[٦] العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل .. فيا لها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ... فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة .. قام على عسكره وحضهم على القتال .. فانكسر الصوفى وولى

١- كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التى تضم التركستان وبخارى وسمرقند .

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٧٧ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة، الأنجلو المصرية ص١٩ .

٤- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ١٩٠ .

٥- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٦ .

٦- كلمة عامية بمعنى فرت .

مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم[1] .

وفر الشاه بعد أن أصابته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده في الأسر وأسرت أيضا إحدى زوجاته ، وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصورا في ١٤ من رجب ٩٢٠هـ واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية[2] وقطع رؤوس من قتل من أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك[3] ، ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد ، وصعوبة المسالك ، وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكتفيا بكبح جماح الفرس[4] ، وخشية ثورة الانكشارية عليه .

ونتيجة لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلي :

١- نجاح العثمانيين في الحد من نشر المذهب الشيعي في الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي ومصر ، واستأصلوا هذا المذهب من الأناضول[5] .

٢- استثمار أوربا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامي ، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوربا[6] .

٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق .

٤- هز كيان الموالين لإيران وزعزعة نفوذهم[7] .

١- محمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٤٠٢-٤٠٣ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ١٩٠ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

٤- نوار : المرجع السابق ص ٦ .

٥- الشناوي : المرجع السابق جـ١ ص٢٤ .

٦- الساداتي : المرجع السابق ص٢٥٢ .

٧- مجموعة الأساتذة : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ص٥٦٨ .

ثانيا : الأتراك العثمانيون : -

ينتمى العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتى تعرف باسم قابى ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميلادى هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فحموهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذى ولد على حسب الروايات التاريخية فى عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها فى ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة، وأظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقى أعلن عثمان استقلاله[١] ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة فى الأناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوربا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجة وجزيرة فى جنوب إيطاليا[٢] .

وفى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أى من حكام أوربا فى عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة[٣] ، وانتهت بانتصارهم فى جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١- ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص١٩ .

٢- العراق فى التاريخ ص٥٦٦-٥٦٧ .

٣- أكرم العلبى: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٦٨ .

وزعزعة النفوذ الإيرانى فى المنطقة ، وهز كيان الموالين لهم[1] . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

ثالثا : المماليك : -

جلب المماليك مـن مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود[2] ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة[3] .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعى للحكم .

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم فى موقعة "ديو البحرية" فى عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بغض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث

١- العراق فى التاريخ ص٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء جـ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد فى خان الخليلى ، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاه يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فيذهبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند .

دمر إمارة "البستان[1]" الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته في مواجهتهم وخاصة أنهم قاموا بإيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني الذي كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول في يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغوري يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغوري في الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله في هذه الشأن "والذي منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم في التجريدة[2]" كما طلب من الخليفة العباسي في مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغوري على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأناب عنه طومان باي في مصر ، ووصل الغوري إلى حلب في يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيه العثمانيون في بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف[3] ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب - الذي استطاع السلطان العثماني رشوته وضمه إلى صفوفه- بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكي أبعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرانصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغوري قتل في أثناء المعركة فتبلبلت الأفكار ، وشاع الذعر في صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم في الفرار ، ولم ينجح الغوري في السيطرة على الموقف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعي[4] وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع في أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها في بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها في جب وأخذوا جثته وألقوها في نهر قريب[5] .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- للتفاصيل انظر ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص٥ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص٤٧ .

٤- ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغوري ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زنبل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التي لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف من الطرفين بتغيير الأوضاع في العالم الإسلامي فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا في التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١- تفوق القوات العثمانية في سلاح المدفعية الذي لا يمتلكه المماليك .

٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغوري في حلب .

٣- الوقيعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم(١) ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكي إلى مصر وهم في أسوأ حال فكانوا ممزقي الثياب، نحيلي الأجسام . وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد في النهاية على اختيار "طومان باي" . ولما تردد طومان باي في الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده(٢) .

وبعد أن علم "طومان باي" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باي في إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك في معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم(٣) .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة في يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باي فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين في عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتمى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذي احتمى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرماني : أخبار الدول وآثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص٩٩ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٦٩ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٩٧ .

ويذكر ابن اياس ان طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابه إلى المشنقة أن يقرأوا عليه "الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك .. فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف[١]" .

وباعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبل على الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية .

أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبانمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصر وليعلن الولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا[٢] .

نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى

ارتكز نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى :

١- الإبقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة السكانية كما هى قبل الفتح العثمانى لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايات العربية التابعة لها بالصبغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية[٣] ، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية .

٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى .

٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتم عليهم خدمة الحكام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن اياس : المصدر السابق ص١١٥ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٦ .

وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى صيانة تأثير الحكم العثمانى[1] .

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها : الوالى - الديوان - الحامية العثمانية - العصبيات المحلية[2] ، وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : الوالى :-

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائبا له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطتان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الادارى وكان يقود الجيوش بنفسه[3] ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بارسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزانة السلطانية ، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولاتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلاطين الولاة بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحى المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأسا من القسطنطينية ، وتركزت النواحى الادارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفرد بها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أنيس : حضارة مصر الحديثة ص١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص٢٦٨ .

٣- أميرة المداح: العثمانيون والامام القاسم محمد فى اليمن ، جدة ، مكتبة تهامة ١٩٨٢ ص١٤٨ .

ذلك كانت الحاميات العثمانية (الاوجاقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لم يكن للوالي سلطات عليهم[1] ، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما. يضاف إلى ذلك أن مدة حكم الولاة كانت تقتصر على عام واحد يتجدد في بعض الحالات ولا يستكمل في حالات أخرى .

ونتيجة لذلك حرص الولاة على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكمهم ، وبشتى الطرق ؛ مشروعة وغير مشروعة ، ومحاولة ملء خزائنهم خلال تلك الفترة القصيرة التي يقضونها في ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترون مناصبهم قبل توليتهم إياها . هذا بالإضافة إلى إهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر الترع أو إقامة السدود أو غيرها[2] .

ثانيا : الديـــوان : -

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل ، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التي تحفظ فيها السجلات من باب المجاز[3] ، ثم شمل بعد ذلك المكان الذي يحفظ فيه كل ما يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيوش وكان الديوان ينقسم إلى قسمين :

الديوان الكبير وهو الذي يفصل في الموضوعات المهمة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشا ، و**الديوان الصغير** وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذي ينظر في شئون البلاد العامة ، وينفذ الباشا قراراته[4] .

ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الانكشارية والدفتردار والعلماء وكبار المسئولين ، وكانت العضوية في الديوان غير ثابتة ، وكان الباشا في معظم الأحيان هو الذي يختار أعضاؤه .

وكان للديوان تأثير كبير في ادارة الولايات[5] فكان بمثابة مجلس وزراء موسع

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٤ .

٢- للتفاصيل انظر محمد كرد علي : خطط الشام جـ٢ ، بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢ ص٢٢٥ .

٣- صبحي الصالح : النظم الإسلامية جـ٢ ، بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ص٣١٢ .

٤- محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٦٣ ص١٠-١١ .

٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومنير العلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ص٤٧٧ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .

ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولاتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثا : الحامية العثمانية : -

هي قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر[١] .

وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الأستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم[٢] .

وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدرها بأميرهم عامر الطاهرى، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة (٣).

١- للتفاصيل انظر الراقد : المرجع السابق ص٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص٢٢٥ .

٣- فاروق أباظة: الحكم العثمانى فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص٢٠ .

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .

وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى ، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصرى[1] .

رابعا : العصبيات المحلية : -

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبيات المحلية فى الحكم هو الاستفادة منهم فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولى مقاليد بعض الأمور فى مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبيات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمر والمنتفق[2] .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبيات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبيات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ ففى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م والانفصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الوقيعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الدهب .

وفى اليمن استطاعت العصبيات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى ، تمكنت خلالها من انهاك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة[3] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦١ ص١١.

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباظة : المرجع السابق ص٤١٥ .

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الإسلامى على العثمانيين.

وفى العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة ، والعشائر الكردية فى كردستان(١).

وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبيات المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع الروسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا ، تحول العالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلى نعرض لذلك .

---

١ - نوار : المرجع السابق ص٦٨-٦٩ .

أولا : الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة[١]، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو فى الواقع خليفة رسول الله وانه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثمانى ألقاب حامى حمى الحرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم[٢] ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثمانى ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى[٣] . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية[٤] .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية فى حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربى فى حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية فى حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تنشغل عن التفكير فى السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثمانى كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والادارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هى من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التى صارت نهبا لها ولأتباعها[٥] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢١١-٢١٤ .

٢- الراقد : المرجع السابق ص٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص٦٦ .

٤- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٤٤ .

٥- الراقد : المرجع السابق ص٢٦١-٢٦٥ .

٤ – عدم إشراك العرب فى الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثمانى للعالم العربى صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم[١] .

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الاقطاعى قبل حكمهم الولايات العربية كما هى .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضى فى مصر والشام ، وخصص مقدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالى ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة . وقد عد السلطان العثمانى نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضى لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضى تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضى فى مصر بينهم فآلت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقى بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف[٢] .

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضى ، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هذه الأرض كل ما يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى اصلاح اقتصادى ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١– أنيس : المرجع السابق ص١٤٥ .

٢– عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٥٤.

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثانى أن يعمل فى خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها، فكان الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الأهالى[١] ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب فى حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبانعاش آدابها وعلومها ، كما لم يهتموا بعثمنة البلاد فاحتفظ العالم العربى ببنائه الاجتماعى الذى كان سائدا فيه قبل الحكم العثمانى ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة فى رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون باسم النقباء[٢] . أما فى الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه فى مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صانعا ، أما البنت فتتزوج زميل والدها فى الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها[٣] .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية فى داخل المجتمع العربى وإن كانت لهم مشاركات فى الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العثمانى فى الوطن العربى يتضح ما يلى :

١ – أن الحكم العثمانى كان ضعيفا فى تأثيره على العالم العربى على الرغم من طول مدته التى تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون فى عثمنة مصر ، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية[٤] .

١– محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٩ .
٢– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٥٦ .
٣– أنيس : المرجع السابق ص١٤٩–١٥٠ .
٤– نفسه ص١٤٤ .

٢ – أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت فى بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية[١].

٣ – أن الحكم العثمانى كان يستند فى المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها فى الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حمى الإسلام .

٤ – ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أشرافها ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثمانى تميز بضعف التدخل الحكومى ، وترك الأهالى وشأنهم فى كل ما يتعلق بأمورهم[٢] ، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة[٣] .

٥ – نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية ، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط .

٦ – اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يصل من الآستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه[٤] .

١– د. حسين خلاف: التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص٧ .

٢– محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص٢٣ .

٣– محمد أنيس : المرجع السابق ص٥ .

٤– محمد كرد على : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٦٧ .

الموضوع الخامس

الحركات الإنفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - فى مصـــر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان[١] ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثمانى ، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثماني ، وكان والده واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن في أثناء رحلة صيد كان يقوم بها في إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك في مصر[1] وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة في ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقي فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدي البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا[2] وواصل على بك الترقي حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك في التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب الهامة[3] ، كما نجح في تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم في المشاركة في الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير في تركيز السلطتين الحربية والادارية في يده وبخاصة بعد نجاحه في كسر شوكة العربان في الوجهين البحري والقبلي فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء[4] . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها في الروسيا[5] ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالي ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر[6] ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفي عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا في شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة في ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

٤- ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٦- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه[1] .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة،كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب دلخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا[2] ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك [3] ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند[4] ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين[5] .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتى : المصدر السابق جـ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب(١) إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين(٢) فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١ – اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .

٢ – انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام .

٣ – علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤ – تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق(٣) ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان(٤) وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١– يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

٢– إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣ .

٣– شكرى : المرجع السابق ص٢٤ .

٤– الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[1] . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ - اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته وإقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر[2] .

٣ - أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير[3] .

٤ - أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[4] . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا االذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جودت: جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

يقضي على الدين الإسلامي ويرغم الأهالي على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبي الذهب وتمكنوا من إحراز انتصار على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته[١]" .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة[٢]" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه[٣] . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين[٤] . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور[٥] ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتى : المرجع السابق جـ١ ص٣٨٥ . وانظر أيضا فواد شكرى : المرجع السابق ص٣٠.
٢- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣ .
٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.
٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21 .
٥- IBid : P. 195 .

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقاب موقعة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هى :

١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهى صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق[١] وفيما يلى نعرض لأهم الحركات الانفصالية فى هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيدانى :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م ، أخذ فى تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف فى وجهه أخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه[٢] ورغبته فى التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا فى الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبنى القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفوذه فى هذه المنطقة[٣] .

١- رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدمشقى الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص٢٤ .

٣- فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك استعداده لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا ... من أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبى الذهب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد انحسرت قواته للمرة الثانية على أيدى أبى الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ – حركة أحمد باشا الجزار(١) ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر، إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فى زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى(٢) ، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما

١- اسمه الحقيقى أحمد البوشناقى ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

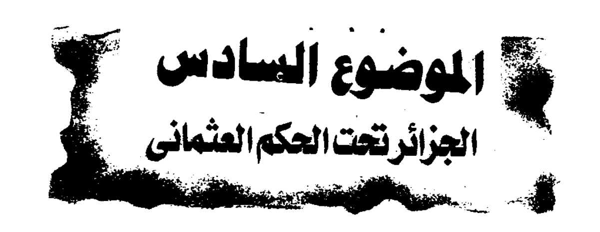
للتفاصيل انظر الأمير أحمد حيدر الشهابى: لبنان فى عهد الشهابيين – تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ص٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظفر بلقبي الوزارة والباشوية ، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة في حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزار في السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، فقام بتحصينها ، كما عمل على زيادة مماليكه وأنصاره . وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتي آل العظم والشهابيين[1] ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلي لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر إستعدادا للهجوم على الشام ، بدأ في زيادة استحكاماته في عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزي بقيادة "سيدني سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم في النصر . ونتيجة لاستبسال الجزار وقواته في الدفاع عن عكا ، وتفشي مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزار وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق في بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابي ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفي الجزار في ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو في ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابي : المصدر السابق ص١٦٠-١٦٥ .



بعد سقوط الأندلس فى يد القوى الصليبية، حاول البرتغاليون والإسبان السيطرة على سمالى أفريقيا، وطمس عروبة أهالى هذه البلاد وتنصيرهم.

وقد وقف أهالى هذه المناطق لهذه المحاولات بالمرصاد وقاموا بمجاهدة البرتغاليين والإسبان، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين «عروج» وأخوه «خير الدين بربروسا»، و«حسن باشا» و«صالح ريس» وغيرهم، فقد كانوا مثلا أعلى فى البطولة والفداء فى المعارك التى خاضوها ضد التكتلات الصليبية التى أرادت النيل من بلادهم لدرجة أن شخصية مثل «عروج» ذاع اسمها بين الأهالى بعد أن حقق أمانيهم فى استرداد الموانى التى نجح الإسبان فى الاستيلاء عليها، كما استطاع أن يؤسس حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها العديد من القبائل وسكان المدن وتمكن من خلالها لاستيلاء على أقاليم الجزائر الواحد بعد الآخر، يضاف إلى ذلك أنه قام بتوحيد جهود مراكب الجهاد التى كانت تجاهد القوى الصليبية فى البحر المتوسط.

ونتيجة لاستشهاد عروج فى إحدى المعارك مع الإسبان خلال حصار مدينة تلمسان، فقد تولى شقيقه «خير الدين بربروسا» Barberoussa أى صاحب اللحية الحمراء أمور الجهاد. ونتيجة لضعف موقف خير الدين بعد مقتل أخيه وخاصة أنه كان فى حاجة إلى العتاد والسلاح، فقد استنجدَ بالدولة العثمانية وهى وقتذاك أكبر قوة إسلامية لها من ماضيها القريب فى خدمة الإسلام والدأب على توسيع رقعته فى شرق أوروبا، ولها من أسباب القوة، وخاصة بحريتها النامية فى شرق البحر المتوسط ما مكنها من اقتحام حلبة الصراع الصليبى فى الحوض الغربى من البحر وتبديل مصائره لصالح الإسلام والمسلمين. فأرسل «خير الدين» وفدا إلى السلطان «سليم الأول» برئاسة «أبو العباس أحمد بن القاضى» الذى اشتهر بجهاده ضد الإسبان لتصوير أوضاع المسلمين المتردية فى الجزائر، وعرض أبعاد القضية عليه، ومطالبته بربط مصير الجزائر السياسى بالدولة العثمانية، وتقديم المساعدات العسكرية لها حتى تتمكن من قيادة عمليات الجهاد الدينى ضد الإسبان وخصوصا أن النزاع بين القبائل أدى إلى توغل الإسبان فى السواحل الجزائرية.

وبعد أن وصل الوفد إلى إستنبول قابل الوزير الأعظم ثم السلطان الذى رحب بوضع الجزائر تحت السيادة العثمانية، وأرسل إلى «خير الدين» فرمانا سلطانيا منحه لقب باشا، وعينه حاكما عثمانيا على الجزائر برتبة «بكلربيك» أى أمير الأمراء وهو من أعظم ألقاب الدولة، كما أرسل إليه ألفين من الجنود الإنكشارية وبعض الأسلحة والذخائر، وسمح له بجمع ما يشاء من المتطوعين الراغبين فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين، يضاف إلى ذلك أنه أعطى «خير الدين» لقب قبودان وهو رتبة عسكرية تمكنه من قيادة الأساطيل العثمانية، وتمنحه العديد من الاختصاصات العسكرية التى تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلاده. ونتيجة لذلك دخلت الجزائر رسميا تحت السيادة العثمانية، وتحقق لبربروسا الحصول على القوات اللازمة لصد الهجوم الإسبانى على بلاده وأصبحت الجزائر مركزا عثمانيا لمجابهة الإسبان ومخططاتهم، وقاعدة لتوسيع رقعة الحكم العثمانى فى شتى أنحاء بلاد الغرب، وإلى جانب ذلك فقد نودى على منابر مساجدها باسم السلطان العثمانى، وصارت العملة تسك باسمه.


السلطان سليم الأول

وقد قام «خير الدين» باستحداث بعض التنظيمات التى تكفل قبول سكان الجزائر للحكم العثمانى كما تمكنه من التصدى للإسبان فعمل على بقاء حكم البلاد الداخلى لأبنائها حيث قسمها إلى قسمين: قسم شرقى يشمل المناطق الجبلية التى تقطنها القبائل وتمتد إلى الحدود التونسية ووضع على رأسها الشيخ «أحمد بن القاضى» وقسم غربى يمتد من مدينة الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان ووضع على رأسه السيد «محمد بن على»، فى حين ترك لمدينة الجزائر السلطة العليا ومباشرة أمور الحرب والسياسة، وكان على رأسها «خير الدين» الذى حكم البلاد حكما شوريا، فأسس إدارة لدراسة القوانين واللوائح وكل ما يصدر به أوامر، كما كون مجلسا من كبراء رجال الدولة وقادة الجيش لإدارة شئون البلاد، وإلى جانب ذلك فقد قرب أهل الجزائر إليه للتعرف على رغباتهم ومشاكلهم.

وخلال ذلك حاولت إسبانيا زعزعة استقرار الوجود العثمانى فى الجزائر عن طريق مساندة بعض المنافسين لخير الدين لكن محاولاتها باءت بالفشل، كما برزت قدرة «خير الدين» فى التصدى للأسطول الإسبانى الذى واصل غاراته البحرية على الجزائر فشن عليه هجوما غنم على أثره العديد من السفن، وأسر بعض ملاحيها.

وبعد أن هبطت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا فى شمالى أفريقيا، واطمأن العثمانيون لإبعاد أخطار الغزو الإسبانى عن تلك الأقطار الإسلامية بدأت سلطة الدولة فى التراخى وقنع السلطان العثمانى بمظاهر السيادة فقط مادامت تستطيع تلك الولايات أن تحفظ كيانها من الضغط الأجنبى بوسائلها الخاصة، وقنعت الدولة بالتضامن الإسلامى العام الذى كان كفيلا بالإبقاء على روابط الولاء. وقد يرجع أسباب تراخى سلطة الدولة العثمانية فى الجزائر إلى بعد المسافة التى تفصل بينها وبين عاصمة الدولة، وإلى ضعف البحرية العثمانية وخاصة بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة «ليبانتو» عام ١٥٧١ ،ومن ثم لجأت الجزائر إلى تنظيم أداة الحكم وإدارة الحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها فى مواجهة الدول الأوروبية، كما لجأت الدول الأوروبية إلى عقد معاهدات مع حكام الجزائر والتى كان من أشهرها معاهدة التحالف بين فرانسوا الأول وخير الدين بربروسا (١٥٢٤) وانضمام السفن الجزائرية إلى السفن الفرنسية فى حربها ضد شارل الخامس ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

وبدأت المؤامرات الداخلية تدبر ضد «خير الدين» والعثمانيين فسعى سلطان تونس إلى عقد محالفة مع سلطان تلمسان ضد «خير الدين» والوجود العثمانى فى الجزائر، ولكن هذا التحالف لم يستمر طويلا حيث استطاع «خير الدين» هزيمة منافسيه وتوطيد نفوذه فى غرب الجزائر. أما فى شرق الجزائر، فقد حاول الحفصيون إثارة المشاكل ضد «خير الدين» ولكنه تمكن من تأديبهم وخاض ضدهم العديد من الحروب التى انتهت بانتصاره وتوسيع دائرة نفوذه فامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب حتى واحات الميزاب الموغلة فى الصحراء، كما تمكن خير الدين من توجيه الضربات للسواحل الإسبانية.

وإلى جانب ذلك فقد اهتم «خير الدين» بإعادة تنظيم إقليم الجزائر فنظم موارد الخزينة من ضرائب ومغانم الزكاة والعشر والجزية والخراج وما يدفعه رؤساء القبائل والعشائر من العوائد والهدايا والخمس من المغانم البحرية، كما أنشأ مجلسين استشاريين للشورى وأمور الديوان.

وظلت إيالة الجزائر العثمانية تثير قلق الإسبان، وتهدد مواصلاتهم كما ظلت بمثابة الحارس الأمامى للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والقاعدة التى ارتكز عليها العثمانيون لتحرير مدن وبلدان المغرب العربى من أيدى الإسبان.

ونتيجة لانشغال «خير الدين» بقيادة الأسطول العثماني فى البحر المتوسط تولى نائبه «حسن أغا» إيالة الجزائر وأخذ يتصدى لقوات الإمبراطور «شارل الخامس» التى عملت على إيجاد تحالفات مع بعض الكيانات المحلية وعقدت معاهدات تبعية مع ملوك وأمراء بنى حفص، وبنى زيان وبعض مشايخ القبائل، كما أخذ يتصدى للحملات العسكرية التى أرسلها الإسبان لطرد الأتراك العثمانيين من الجزائر.

وقد عمل حسن أغا على دعم قوة الجزائر فى مواجهة الإسبان وأتباعهم؛ ففى الداخل عمل على توطيد الأمن وإلى التفاف الأهالى حوله. كما عزز نفوذه جنوبا بعد أن نجح فى إخضاع القبائل هناك. وإلى جانب ذلك فقد قام بتجهيز أسطول هاجم به السواحل الإسبانية، وأثار الرعب بين سكانها. ففى جمادى الأولى ٩٤٦هـ/ سبتمبر ١٥٣٩ أقلع بأسطوله المكون من ثلاث عشرة سفينة تقل ألفا وثلاثمائة رجل نحو جبل طارق، ونجح فى احتلال هذه المنطقة والاستحواذ على ما فيها من غنائم، كما توغل فى جهات الساحل الإسبانى الجنوبى وغنم العديد من المتاع والأسرى. كل ذلك دفع الإمبراطور «شارل الخامس» إلى محاولة الاستيلاء على الجزائر، وفصلها عن الدولة العثمانية بشتى الطرق. فعرض على «خير الدين» حكم شمال أفريقيا تحت السيادة الإسبانية ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وخاصة أن «خير الدين» أبلغ السلطان العثمانى بالأمر. ونتيجة لذلك أعد «شارل الخامس» حملة كبيرة تحركت إلى الجزائر، وتمكنت من الاستيلاء على مينائها والالتفاف حول المدينة لاحتلالها من الخلف، مما أصاب أهل البلاد بالهلع. وفى أعقاب ذلك أرسل الإمبراطور الإسبانى يطلب من «حسن أغا» التسليم، ولكنه رفض، وأعلن أن رجاله سيحاربون إلى آخر رجل. ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث هبت عاصفة هوجاء اجتاحت شواطئ الجزائر، وصحبها هطول أمطار استمرت عدة أيام فسد خلالها مفعول البارود الذى فى حوزة الإسبان، كما اقتلعت الرياح خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن الأخرى إلى الشاطئ، وهجم عليها المدافعون المسلمون، واستولوا على ذخائرها.

وفى وسط هذه الأهوال نجح «حسن أغا» فى مفاجأة العدو، والالتفاف حوله مما أدى إلى فشل محاولات الإمبراطور الإسبانى فى مهاجمة مدينة الجزائر وخاصة أن تساقط الأمطار والعواصف الجوية لم تكن فى حسبانه. وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة القوات الغازية فأفنوا جزءا كبيرا منها، مما أجبر المهاجمين على الانسحاب، وكان له أبلغ الأثر فى ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين، مما دفع السلطان العثمانى «سليمان القانونى» إلى منح «حسن أغا» وأعوانه العديد من الألقاب والنياشين.

وبعد وفاة «حسن أغا» فى رمـضان ٩٥٢هـ/ نوفمبر ١٥٤٥م تولى حكم الجـزائر «حسن بن خـير الدين بربروسـا» الذى تمكن من التـصدى للتكتـلات الصليـبيـة، ومنعهـا من احتـلال مدن السـاحل فى وهران، والمرسى الكبـير، وبجاية. وذلك بفضل مهارته فى الأمور الحربية البرية والبحرية، كما عمل على تنظيم إيالته إداريا وعسكريا، فقام بالقـضاء على تمرد القبائل القاطنة فى المناطق الغـربية من الجـزائر، رتنظيم الجيش، وتحـقيق الانضـباط فـيه ومع ذلـك فإن

المؤامرات التى حيكت ضد «حسن باشا» لدى السلطان العثمانى أدت إلى عزله من منصبه وتولية «صالح ريس» حاكـما على الجزائر فى محرم ٩٥٩هـ/ يناير ١٥٥٢م. وقـد عـمل «صـالح ريس» على تأمـين إيـالة الجـزائر من الداخل والتصدى للحكومات المحلية المتعـاونة مع الإسبان ومن أجل ذلك قاد حملات عسكرية لوضع حـد لهذه الأمور، ونتـيجة لتـركز فكرة الجهـاد الإسلامى فى ذهن «صالح ريس» فـقد قام بمحاصـرة سواحل الإسبان، وعـمل على إيجاد جبهة إسلامية موحـدة فى المغربين الأوسط والأقصى لمحاربتهم، كما نجح فى إنهاء حكم الأسـرة الزيانية فى تلمسان، وضم هذه المنطقـة إلى إيالة الجزائر العثمـانية، وفى ربيع الأول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥ شن «صالح ريس» هجوما على المراكز الإسـبانية استطاع خلاله انتزاع منطقة «بجاية» من الإسبان، كما أرسل قواته لتحرير وهران ولكن القدر لم يمهله فتوفى فى رجب ٩٦٤هـ/ يوليـو ١٥٥٦م. وفى أعقـاب ذلك شهدت إيـالة الجزائر أوضـاعا مضطـربة، استغـلها السعديون للاستيلاء على تلمسان ولكن جهودهم لم تكلل بالنجاح.

ومن أجل إعادة الأمن والاستقرار فى الجزائر عين السلـطان العثمانى «حسن بن خير الدين» بكلربيك على الجزائر، فطارد جيش السعديين المحاصر لتلمسان، وحاول أن يحرر وهران والمرسى الكبير ولكنه فشل فى ذلك.

ونتيجة لتدهور أمور ولاية الجزائر خاصة بعد انتشار الأوبئة والمجاعة وتمرد الجند، والخلافات القائمة بـين البحارة والإنكشارية والثـورة التى قامت فى قسطنطينية أمـر السلطان العثمانـى بتولية

«علج على» حاكما على الجزائر فوصلها فى رمضان ٩٧٥هـ/ مارس ١٥٦٨. وقد شهدت ولاية الجزائر فى عهده استقرارا واضحا، كما شهدت نشاطا ملحوظا ضد الإسبان ولتوحيد جهود المسلمين فى مواجهة الصليبيين رأى «علج على» ضرورة تحقيق وحدة بلاد المغرب العربى تحت الحكم العثمانى، ومن أجل ذلك اهتم بتوجيه الجهاد العثمانى لطرد الإسبان من بلاد المغرب العربى عن طريق وضع مخطط لمساعدة الموريسكيين فى ثورتهم ضد الإسبان والتوجه إلى تونس لتحريرها من أيديهم ثم جمع الجيوش لإعادة فتح الأندلس وضم المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية. وبالنسبة لتونس فقد توجه «علج على» لفتحها وتمكن من هزيمة القوات الحفصية المؤيدة من قبل الإسبان، ودخول المدينة فى نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩ حيث رحب به الأهالى وأخذ البيعة للسلطان العثمانى «سليم الثانى» وضرب السكة باسمه. وبالنسبة للفترة من ١٥٨٨-١٦٥٩ فقد تميزت بالصراع بين قوى ثلاثة هى الباشا ممثل السلطان، والإنكشارية، وأمراء البحر، وقد ساند الإنكشارية أمراء البحر من أجل الحصول على الغنائم مما أضعف من سلطة الباشا. وفى عام ١٦٥٩ تم خلع الباشا العثمانى، وانتخاب الداى رئيس الديوان حاكما على الجزائر مما أدى إلى تحكم قادة الجند فى الدايات، وقد استاء الأهالى من هذه الفوضى، وساندوا أمراء البحر الذين فرضوا أحد رجالهم على الأوجاق فى عام ١٦٧١ ووضعوا حدا لسيطرة الإنكشارية. ومنذ عام ١٧١١ اغتصب داى الجزائر صلاحيات الباشا العثمانى. وظل الدايات ينتخبون من بين أمراء البحر، وبمرور الوقت أصبح الداى يحكم دون مشورة الديوان، وأصبح حاكما مستقلا لا سلطان للدولة العثمانية عليه إلا السيادة الاسمية.

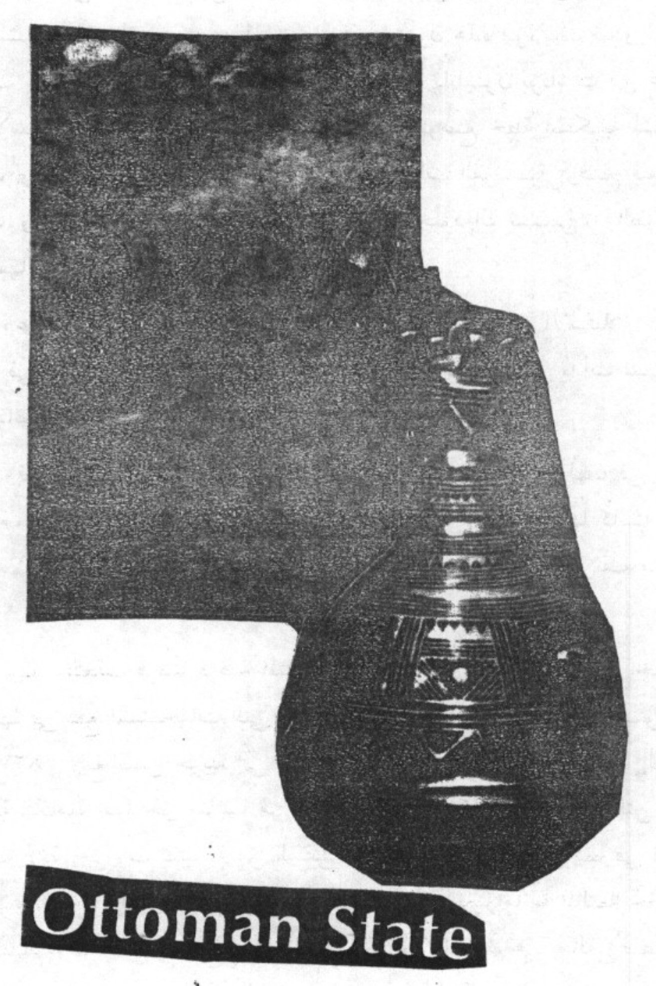
وخلال ذلك أصبحت السلطة الحقيقية فى أيدى رؤساء القوات غير النظامية، ولم يصبح للسلطان العثمانى سوى السيادة الاسمية فقط، وأصبح الحاكم الملقب بالداى هو المتقلد الرسمى لأمور الحكم ونتيجة للسلطات الواسعة التى أعطيت للدايات تحولت الجزائر تدريجيا إلى دولة شبه مستقلة، فقد كان من حق الدايات عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية دون الرجوع إلى السلطان العثمانى، ولم تكن إيرادات البلاد يرسل منها شىء إلى الآستانة بل كانت تصرف معظمها داخل الجزائر، وخلال القرن الثامن عشر شهدت الجزائر انهيارا اقتصاديا بسبب كساد الحركة التجارية نتيجة لحصار بعض الدول الأوروبية للشواطئ الجزائرية، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات وبعض رجال الجيش من جهة، وقراصنة البحر من جهة أخرى مما أدى إلى اضطراب الأمن، وفقدان الدايات للسيطرة على أمور بلادهم.

ونتيجة لضغوط قباطنة البحر الجزائريين على السفن الأوروبية التى تمر بشواطئ بلادهم وفرضهم الإتاوات المستمرة عليهم ضاقت بعض هذه الدول من ذلك الوضع فأرسلت إسبانيا حملة فى عام ١٧٧٥ للاستيلاء على ثغر الجزائر التى كانت تعده مكمن الخطر على سفنها فى البحر المتوسط، ولكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء على الثغر الجزائرى رغم النيران الحامية التى صبتها عليه. ومع ذلك لم تتوقف المحاولة فقد حاول الإسبان تكوين حلف أوروبى ضد الجزائر، ولكن محاولتهم فشلت مما جعل الدول الأوروبية تتنافس فيما بينها لكسب ود حكام الجزائر وعقد امتيازات سياسية وتجارية معهم، وإلى جانب ذلك فقد حاولت الولايات المتحدة إقامة تحالف أمريكى أوروبى ضد الجزائر، ولكنها فشلت مما أدى إلى رغبتها فى شراء السلام بالمال.

ولنا هنا أن نتساءل هل الجهاد البحرى الإسلامى، وفرض الإتاوات على السفن الأوروبية التى تخالف المسلمين فى عقيدتهم الدينية تسمى قرصنة.

الواقع أن تاريخ الجزائر الحضارى تعرض لكثير من التشويه؛ فالمؤرخون الأوروبيون يصرون على اعتبار البحارة المسلمين الذين جاهدوا لوقف الهجمات الصليبية على بلادهم أمثال «عروج» وأخيه «خير الدين بربروسا» و«صالح ريس» على أنهم قراصنة مع أن هؤلاء كانوا مثلا أعلى فى البطولة والفدائية، فقد جسد «عروج» و«خير الدين» فى نظر الجزائريين روح المواجهة والاستبسال فى المعارك التى خاضوها دفاعا عن إسلام وعروبة شمالى أفريقيا، واستطاعوا جمع صفوف سائر مسلمى هذه البلاد لمواجهة أعداء الإسلام، ومن المؤسف حقا أن نرى بعض المؤرخين والباحثين المسلمين قد سايروا المؤرخين الأوروبيين فى هذا الرأى الخاطئ، ووصفوا عمليات الجهاد الدينى البحرى التى قام بها هؤلاء البحارة ضد السفن المسيحية التى دأبت على التعرض للسفن الإسلامية بأنها عمليات قرصنة رغم خطئها إذ يجب أن نطلق عليها عملية الجهاد البحرى الإسلامى، فليس من المنطقى أن نعتبر الرجال الذين يخرجون على سفنهم المسلحة للدفاع عن السواحل الإسلامية فى شمالى أفريقيا والعمل على حماية الممتلكات والأرواح الإسلامية بأنهم قطاع طرق وقراصنة ولا هَمّ لهم إلا السلب والنهب وخنق التجارة الدولية، وعرقلة قيام علاقات سلمية بين الشعوب. ومن الغريب حقا أن نجد أفكارا خاطئة حول هذا الموضوع لا تزال رائجة يرددها متخصصون أكاديميون، الواقع أن هجوم السفن الإسلامية ضد السفن البحرية الصليبية كان جهادا بحريا إسلاميا وخاصة أنه كانت هناك حروب مستمرة مع هذه الدول.

وقد استند المسلمون إلى مبدأ الجهاد الإسلامى فى محاربة أعداء الإسلام سواء على الأرض أو فى البحر؛ لذلك فإن ما قام به رجال البحر الجزائريون ضد سفن إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا كان جهادا بحريا إسلاميا جاءت بدايته ردا على اعتداءات تلك القوى الصليبية على المسلمين فى إسبانيا وفى شواطئ بلاد المغرب. كما أن ما قاموا به يمكن اعتباره من قبيل الدفاع عن النفس ضد أطماع القوى الصليبية، يضاف إلى ذلك أنه من المعروف أن



رصنة - إذا صح
ك التعبير - لم
ن مقصورة على
سلمى شمال
ريقيا، ولكنها
انت سلاحا
تخدمه المسلمون
غير المسلمين،
كما كانت السفن
إسلامية تعتدى
لى سفن الدول
أوروبية، فإنها
انت سلاحا
ستخدمه
أوروبيون ضد
عضهم البعض
ضد المسلمين
ضا، فقد
ستخدمه الإنجليز
ضد سفن خصومهم
الإسبان، وباركته
حكومة الإنجليزية،

كما شهره البرتغاليون ضد السفن الإسلامية بعد موقعة ديو البحرية. وعلى أية حال فقد استطاع قباطنة البحر المسلمون الدفاع عن الشمال الإفريقى ضد العدوان الإسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا حتى لاح لهم أن من الخير أن ينضموا تحت لواء الدولة العثمانية ففعلوا وتحول الجهاد الإسلامى فى منطقة المغرب العربى من جهاد فردى، إلى جهاد دولة تمتلك من الأساطيل ما تستطيع به ردع أى عدوان صليبى ضد أى دولة إسلامية. وظلت الروح الصليبية تؤثر فى العلاقات بين ولايات المغرب العربى والدول الأوروبية، حتى بدأت المشروعات التى وضعت للتدخل فى شئون هذه الولايات تبدو للعيان، فنتيجة لتردى العلاقات بين فرنسا والجزائر فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت فى عام ١٨٠٨م الذى راودته فكرة الاستيلاء على الجزائر فكلف أحد ضباطه بوضع خطة عسكرية لمشروع حملة فرنسية على الجزائر، وقد قام هذا الضابط بكتابة تقرير للسلطات الفرنسية أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على الجزائر، وأشار إلى الأماكن التى تصلح لإنزال الجنود الفرنسيين، والطرق والآبار التى يمكن أن يستخدمها رجالات الحملة.

وعلى الرغم من أن هذا التقرير قد حفز نابليون على الاستيلاء على الجزائر فإن الظروف الدولية فى ذلك الوقت لم تسمح له بتحقيق هذه الأطماع التى بدأت تثبت فى أذهان ساسة فرنسا الذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لذلك.

وقد انتهزت فرنسا فرصة فقدان الدولة العثمانية لأسطولها فى معركة «نوارين البحرية» ١٨٢٧م، فحاولت اقتطاع الجزائر من أملاك العثمانيين وخاصة أنها كانت ترغب فى الحصول على الموارد الأولية اللازمة لصناعاتها، وإيجاد الأسواق اللازمة لتصريف منتجاتها وتوظيف رءوس أموالها.

وقد استغلت فرنسا فرصة المشادة الكلامية التى حدثت بين داى الجزائر وقنصلها هناك نتيجة لمماطلتها فى دفع المستحقات التى عليها للجزائر نظير الحبوب التى استوردتها منها، فأرسلت فى يونيو ١٨٢٧ أربع سفن حربية إلى الشواطئ الجزائرية، ووجهت إنذارا إلى الداى كانت أهم بنوده الترضية الكاملة عما لحق بفرنسا من إهانة، وتقديم كافة الضمانات التى تحول دون تعرض السفن الفرنسية لأية إجراءات تفتيشية من السفن الجزائرية، وأن تتمتع فرنسا فى الجزائر بحق الدولة الأكثر رعاية، وأن يعلن الداى أن حكومة فرنسا قد أوفت بالتزاماتها المالية تجاه الجزائر وأنه ليس له أى حق قبلها. وقد هددت فرنسا بإعلان الحرب على الجزائر فى حالة رفضها لشروط الإنذار، ومع ذلك فقد رفض الداى الإنذار الفرنسى، وأصر على التمسك بموقفه، وأخذ يتهكم على المطالب الفرنسية بقوله: «لم يبق إلا أن يطلبوا [illegible]».

ونظرا لأن قيام فرنسا بعملية حربية ضد الجزائر أصبحت شبه مؤكدة أبلغت فرنسا الدولة العثمانية بأن والى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا، ورفضه تقديم الترضية العلنية قد جعل الحرب محققة بين فرنسا والجزائر. ولما كانت الدولة العثمانية منشغلة فى مشاكلها فى جزيرة المورة، ولا تنوى إضافة أعباء أخرى تضاف إلى همومها فقد تباطأت فى حسم الموقف بالطريقة المناسبة مما أعطى لفرنسا فرصة الانفراد بالأمر، وخلال هذه الفترة بدأت فرنسا فى البحث عن حلول أخرى تجنبها نفقات الحرب، وفى نفس الوقت تجعل المسلمين يقاتلون بعضهم بعضا فاقترح «دورفتى Drovetti» قنصل فرنسا فى الإسكندرية قيام محمد على وإلى مصر بحملة على الجزائر بمساندة فرنسا لتأديب الداى والقضاء على حكومته، واحتلال الجزائر وضمها إلى أملاكه على أن يكون لحليفته فرنسا امتيازات واسعة فى هذه البلاد.

ولما فوتح محمد على فى الأمر تردد فى البداية خشية فقدان ثقة العالم الإسلامى فيه وقال للقنصل الفرنسى: «أنتم مسيحيون أما نحن والجزائريون فمسلمون، وسماع أقوال كتلك ونحن ذوو دين، وأمة وشريعة ودولة واحدة، لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا» ولكن سرعان ما عدل محمد على عن رأيه ووافق على فكرة القيام بحملة لتأديب الداى بشرط أن تدفع له فرنسا مبلغا ماليا، ودعما بحريا يمكنه من إعادة بناء أسطوله الذى تحطم فى موقعة نفارين البحرية عام ١٨٢٧م.

وفى محاولة من محمد على لتكشف الموقف أرسل إلى الداى برسالة ينصحه فيها ويحذره من العواقب الوخيمة إذا أصر على موقفه المعادى لفرنسا، وكان رد الداى عليه فليذهب محمد على ليأكل الفول.

وحتى يأخذ مشروع محمد على بالحملة على الجزائر شكلا رسميا لا تعترض بريطانيا أو غيرها عليه رأت فرنسا ضرورة أخذ موافقة السلطان العثمانى على المشروع، وعندما تسرب الخبر إلى الإنجليز اعترضوا عليه وحرضوا السلطان العثمانى ضده، كما حذرت بريطانيا محمد على الذى بدأ يرتبط بالمصالح الفرنسية من الإقدام على هذا العمل، وإلى جانب ذلك فقد ثارت الدول الأوروبية ضد هذا المشروع كما عارضت الدولة العثمانية امتداد نفوذ محمد على إلى شمالى أفريقيا، وإزاء هذه العقبات أغمضت فرنسا أعينها عن هذا المشروع، وظلت تتحين الفرص المواتية للقيام بنفسها بحملة عسكرية ضد الجزائر والانفراد باحتلالها، وقد جاء الوقت المناسب لذلك عندما انشغلت بريطانيا بالانقلاب النيابى الذى حدث فيها خلال ذلك الوقت وانشغلت الروسيا وبروسيا والنمسا بالثورات التى اندلعت فى إيطاليا وبولندة فى تلك الفترة فتذرعت فرنسا أمام الرأى العام الأوروبى أنها تدافع عن قضية أوروبية تدعم من خلالها قواعد العدل، وأصدر ملكها

قرارا فى ٧ فبراير ١٨٣٠ بإعــلان التعبئة العامــة ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بغزو الجزائر فأبحر الأسطول الفرنسى من ميناء طولون فى شهر مايو من نفس العام وهو يحمل ٢٠ ألفــا من رجال البحرية وقام الجـيش الفرنسى المكون من ٣٧٦٠٠ مقاتــل، و٩١ قطعة مدفعــية بغزو الجزائر، بإنزال جنوده فى ســيدى فرج على بعد ٢٥ كــيلو مترا غربى مــدينة الجزائر، ونتيجــة لذلك عهد الداى إلى صهره إبراهيم أغا بقيادة القوات المدافعة. وقد دافع الجزائريون عن بلادهم دفاعا مــجيدا استطاعوا خلاله حــصر الزحف الفرنسى فى شريط ســاحلى لا يشمل كل الشواطئ الجزائرية، ومرت ثلاث سنوات دون أن يستطيع الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أكثر من بضع موانئ ساحلية، بينما أصبح داخل البلاد فى أيدى الزعماء ورؤساء القبائل.

وخلال الفترة من ١٨٣٠ إلــى ١٨٣٩ قامت سياسة فرنسا فى الجــزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ثم تحولت هذه السياسة إلى التوغل فى الداخل، فنجح الفرنسيون فى احتلال سيدى فرج والوصــول إلى مدينة الجزائر، ومهاجمة قلعة السلطان، وحصن القصــبة، وإشعال النار فى مــخازن الذخيرة، ولما رأى الداى تحــول الموقف فى غير صالحــه حاول الحصول على صلح مشرف مع الفرنسيين، ووسط فى ذلك قنصل بريطانيا ولكن الفرنسيين رفضو هذه الوساطة وأصروا على فرض شروطهم والتى كان من أهمها ما يلى:

١ ـ تسليم حصن القصبة، وجميع حصــون مدينة الجزائـر وأبوابهـا للفرنسيين.

٢ ـ ضمان القائد الفرنسى حماية الداى، وممتلكاته الشخصية.

٣ ـ ترك الحرية للداى فى الإقامة أو الرحيل إلى أى مكان يريده.

٤ ـ عدم اتخاذ أى إجراءات انتقامية ضد الجنود الجزائريين.

٥ ـ كفالة حرية الجــزائريين فى إقامة شعائرهم، وصيانــة ممتلكاتــهـم وتجارتهم وصناعتهم والمحافظة على أعراضهم.

وقد وافق الداى على هذه الشــروط التى تضمنت متطلبــاته وقرر مغادرة مــدينة الجزائر وأسرته إلى نابلى بإيطاليا، ونتيجة لذلك انتهت آخر مظاهر التــبعية للعثمانيين فى الجزائر ووقع أعباء المقــاومة على الشعب الجزائــرى نفسه، وبدأ الاستعــمار الفرنسى الرسمى فــى الجزائر، و حاولت الدولة العــثمانية اســترداد الجزائر بالطرق الدبلوماســية، وبذلت مساع عــديدة لدى إنجا والنمسا من أجل استرجــاع سيادتها على هذا الإقليم ولكنهما كانتا مشــغولتين بالأوضاع الأورو فى ذلك الوقت.

ومما سبق يتضح أن أهم العوامل التى ساعدت فرنسا على احتلال الجزائر هو تغير الموقف الدولى لصالحها، هذا بالإضافة إلى دخول الدولة العثمانية فى دور الاضمحلال وعدم قدرتها على الصمود بنجاح أمام الهجوم الاستعمارى، وعدم معرفة داى الجزائر بعواقب الأمور، وبقدرات فرنسا العسكرية التى برزت مع النهضة الأوروبية والتطور الصناعى فى أوروبا.

هذا عن تاريخ الجزائر منذ تبعيتها للدولة العثمانية حتى الاحتلال الفرنسى لها، أما عن نظام الحكم العثمانى للجزائر، ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيمكن حصرها فيما يلى:

١- نظام الحكم العثمانى فى الجزائر

لم يكن للدولة العثمانية خطة واحدة لإدارة حكم الجزائر بل تأثرت سياستها بصفة عامة بالأوضاع الداخلية التى كانت سائدة، وبتطور الأحداث فى هذه البلاد فبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين بمبادرة من خير الدين اعتبرت ولاية ممتازة، وقاعدة لتوسيع الحكم العثمانى فى كافة بلدان المغرب العربى.

وقد شهدت الجزائر عدة تغيرات خلال الحكم العثمانى لها يمكن تقسيمها إلى أربع فترات وهى:

١- الفترة الأولى من ١٥١٨ - ١٥٨٨م وهى فترة حكم البيكلربكوات وفيها كان الوالى بمثابة ممثل السلطان أو نائبه، وكانت الجزائر تعد أقوى نيابات المغرب، وكان البيكلربك يعين من قبل السلطان، وهو بدوره يشرف على الباشوات الحاكمين فى إقليمى طرابلس وتونس.

وبعد أن ألغت الدولة نظام البيكلربك أصبحت الجزائر ولاية عادية، وأصبحت كل ولاية قائمة بنفسها يتولاها الباشوات الذين تعينهم حكومة الباب العالى.

٢- الفترة الثانية ١٥٨٨-١٦٥٩م وفيها فقد الباشوات سيطرتهم الفعلية على الإنكشارية وانتقلت السلطة إلى الأوجاقات.

٣- الفترة الثالثة ١٦٥٩ - ١٦٧١م وفيها استأثرت الإنكشارية بالسلطة وعمت الفوضى وانتهى الأمر بتولى رجال البحر زمام الأمور وتم تولية أحدهم تحت لقب «داى».

٤- الفترة الرابعة ١٦٧١ - ١٨٣٠م وفيها استمر لقب الداى موجودا وإن أصبح دايات الجزائر يحملون لقب «الباشا» وإلى جانب ذلك فقد عاون حكام الجزائر فى إدارة شئون البلاد مجلس استشارى، هذا بالإضافة إلى الديوان الذى كان يتألف من نائب الحاكم الأعلى ويطلق عليه الكاهية. وقد تركزت مهمة الديوان فى مساندة الحاكم فى إدارة البلاد.

وبالنسبة للقوات العسكرية فقد كان يطلق عليها الحامية العثمانية وليس جنود الاحتلال وكان نواتها الجنود الإنكشارية الذين أرسلهم السلطان إلى «خير الدين» أثناء فتح الجزائر والمتطوعون الذين يتم إرسالهم عن طريق الدولة العثمانية والذى لم يقتصر دورهم فى الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن، بل أخذ معظمهم يتدخل فى إدارة شئون البلاد وفى حياة السكان بصورة واضحة مما أدى إلى إضعاف الحكومة والجيش معا، وكان مقتل تركى واحد دافعا لحدوث مجزرة بين الأهالى إذا لم يقبض على القاتل.

ونتيجة لاستقرار هؤلاء الجند فى الجزائر فقد بدأوا يتزوجون من الأهالى الذين كانوا يرحبون بذلك رغبة فى الحماية الفعالة منهم، كما عمل بعضهم بالتجارة وربحوا ثروات طائلة.

ومن الفرق العسكرية الشهيرة فى الجزائر القولوغلى وهم المولدون من زواج الإنكشارية بنساء من الأهالى. وقد استخدم بعضهم فى الوظائف المساعدة، وفى أن يكونوا واسطة بين الحكومة والأهالى؛ نظرا لمعرفتهم اللغة التركية، وقد تميز هؤلاء بتولى العديد من السلطات وإلى جانب هؤلاء فقد كان هناك طائفة الرؤساء وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثمانى فى الجزائر ولعبوا دورا بارزا فى خلق النيابات العثمانية فى شمال أفريقيا، كما تركز نشاطهم ضد السفن الأوروبية وغنموا منها الكثير من الغنائم والأسرى. وكانت هذه العمليات تحمل طابع الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين، وبالإضافة إلى ذلك فقد كلف هؤلاء بحماية القطاع الغربى من البحر المتوسط ضد إسبانيا عدو الإسلام التقليدى فى ذلك الوقت، وقد نجح هؤلاء فى مهمتهم إلى حد كبير نظرا لمهارتهم فى قيادة السفن، وانضباطهم ومعرفتهم لشواطئ بلادهم الأصلية مما جعل لهم مكانة كبيرة فى الجزائر وخاصة أن المغانم التى كانوا يحصلون عليها كانت أهم موارد البلاد.

وحول النظام الضريبى فى الجزائر وغيرها من الولايات المغربية فقد كان محددا من قبل الدولة العثمانية، وكان فرض الضرائب يتم بطريقة تعسفية ترهق السكان وتثير ردود فعل عنيفة.

ففى كل عـام تخرج مفرزة عـسكرية تبدأ عملها مـا بين شهرى مايو وأكتوبر وتتجول فى القرى والمناطق القبلية بهدف جمع الضرائب المقررة عليها، وكانت عملية انتقال هذه المفرزة من منطقـة إلى أخرى، وعملية إطعام مابها من جنود وموظفين يتـحملها الأهالى. وليس معنى ذلك أن كل القبائل كـانت تسدد ما عليها من ضـرائب فكانت هناك قبائل لا تدفع الضرائب نظرا لصـعوبة فرض سلطة الحكومة عليها.

وكانت الضرائب على نوعين: ضـرائب شرعية مثل الزكاة والعشـور على المحاصيل وتحدد بحسب الأفدنة المزروعة، وضـرائب أخرى متعددة مثل العوايد وهى بمثـابة هدايا إجبارية تقدم فى المناسـبات كالأعـياد، وهناك ضـريبة «اللزمـة» وكانت تؤخـذ لتمـوين الجند فى الأرياف، وهناك ضرائب المكوس على الأسـواق. وإلى جانب ذلك فكان سكان المدن يدفعـون ضرائب على المهن التى يعملون بها .

وكان تقدير الضرائب يجرى بطريقة عشوائية بهدف تأمين حاجات الإدارات الحكومية. فقد كان نظام الالتزام بؤرة لكثيـر من المفاسد والعيوب والنهب والتى تقع جميـعها على عاتق الأهالى حيث كان الفـلاح يدفع مثلى أو ثلاثة أمثال الضـريبة المقررة عليه. وكان الامـتناع عن الدفع يعد عصيانا كبيرا.

وإلى جانب ذلك فقد كانت خـزينة البلاد تعتمد على موارد أخرى فقـد كان لها حصة من الإتاوات التى يفرضها البحارة على الدول الأوروبية مقـابل حرية مرور سفنهم، كما كانت الهدايا التى يقدمها القناصل للدايات أشبه بجزية سنوية.

وفى محاولة لضـبط الأمور عملت الحكومة العثمـانية على الاستعانة ببـعض القوى المحلية لفرض سيطرتهـا على الولاية، فاختاروا بعض القـبائل وسموها بالمخزن، وكلفـوها بالمساعدة فى القيـام بأعمال الشرطـة وتأديب القبائل العـاصية التى ترفض دفع الضـرائب وذلك فى نظير بعض الامتيازات التى تمنحها لها.

كما أنشأت الحكومة ما يسمى «بالسمول» (جمع سمالا) وهى جماعات صغيرة من الأهالى منحتها بعض الأراضى للإقامـة فيها نظير قيامها بحمـاية الجنود والمسافرين، والمحافظة على الأمن فى المناطق المحيطة بها والمحافظة على بعض النقاط الهامة.



وبعد أن اتسع نطاق إيالة الجزائر تم تقسيمها إلى عدة ولايات وهى:

- ولاية الجزائر وكانت تسمى دار السلطان، وتشمل مدينة الجزائر وضواحيها وترتبط بالداى مباشرة.
- ولاية الجنوب وكان يحكمها باى وعاصمتها الميدية وكانت أصغر الولايات.
- ولاية الغرب وكان يحكمها باى وعاصمتها مازونة ثم نقلت بعد ذلك إلى مدينة معسكر ثم إلى وهران.
- ولاية الشرق وكان يحكمها باى وعاصمتها قسطنطينة وتمتد حتى حدود تونس.

Ottoman State and the Maghreb

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م وبعدها أرسلت الدولة العثمانية إلى الجزائر ولاة يحملون لقب باشا كان الواحد منهم يعين لمدة ثلاث سنوات، ثم تغيير ذلك النظام فى عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩ بما أطلق عليه مرحلة الأغوات وأعقبه مرحلة الدايات فى عام ١٦٧١م الذى استمر حتى وقعت الجزائر فى قبضة الاحتلال الفرنسى عام ١٨٣٠ م.

وبالنسبة للنظام القضائى فقد كان جزءا من التنظيم القضائى للدولة العثمانية الذى يبدأ بشيخ الإسلام، واثنين من قضاة العسكر. وقد عين قاضيان بالجزائر أحدهما للمذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة العثمانية، والآخر للمذهب المالكى الذى كان يسير عليه معظم سكان شمال أفريقيا. كما وجد المجلس الشرعى الأعلى الذى يتألف من قاضيين ومفتيين على المذهبين المذكورين. وأحد المشايخ للنظر فى شئون الأوقاف وممثل للحكومة، وكانت مهمة هذا المجلس تتحدد فى مراجعة أحكام القضاء، والنظر فى المنازعات الكبرى وكان مقره بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة، ويحضر الحاكم اجتماعاته غالبا.

٢ - أحوال الجزائر الاقتصادية خلال الحكم العثمانى:

وبالنسبة للنواحى الاقتصادية فلم يكن للدولة العثمانية أثر ملموس فى ذلك فلم تتدخل فى تحسين وسائل الزراعة البدائية أو فى العمل على الوقاية من الكوارث الطبيعية والأوبئة أو الاهتمام بالمجارى المائية بل تركت الأمور على حالها، وإلى جانب ذلك فقد كان لارتفاع نسبة الضرائب على الفلاحين أكبر الأثر فى عدم استغلال الأراضى الصالحة للزراعة، ويقال نفس الشىء عن التجارة. حقيقة كان هناك ازدهار محدود فى هذا القطاع الذى تمثلت أنشطته فى المبادلات التجارية المحلية بالأسواق، وفى التبادل التجارى مع المدن الحدودية فى تونس والمغرب، ولكن التبادل التجارى الخارجى كان مخيما عليه حركة الكساد نظرا لوقوف الدول الأوروبية فى وجه حركة التجارة الجزائرية بالمرصاد، هذا إلى جانب عدم اهتمام الدولة بإنشاء الموانى الصالحة للتجارة، وبالنسبة للنظام النقدى فى الجزائر فقد أصدرت الجزائر سكتها باسم السلاطين العثمانيين إشارة إلى التبعية والولاء. فقد سك فى الجزائر أنواع مختلفة من النقود الذهبية والفضية والنحاسية وإلى جانب النقود العثمانية فقد اتبع نظام الأوزان والأطوال والمقاييس والمكاييل العثمانية مثل القنطار والأقة، والأوقية، والدرهم، والمثقال الذهبى والذراع القياسى وغيره.

وبالنسبة للصناعة فقد وجد بالجزائر صناعات مختلفة منها صناعة النسيج، ودباغة الجلود، وصناعة السجاد، وصناعة الأحذية، وصياغة الذهب، والصناعات الخزفية.

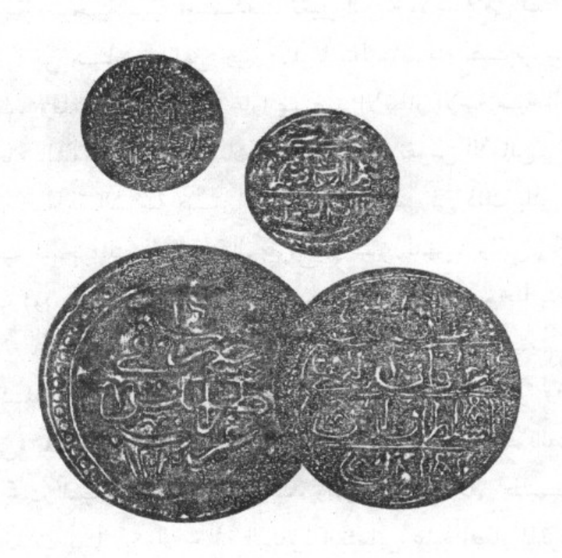
٣ - الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى:

أما عن الحياة الثقافية فى الجزائر خلال الحكم العثمانى فقد طبعت بالطابع الإسلامى، فقد ارتبط التعليم والقضاء والعلاقات الاجتماعية والفكرية بالنظام الإسلامى فكان التعليم منتشرا فى أوساط القرى والريف عن طريق المساجد والزوايا التى كانت تمول من الأوقاف التى يهبها أهل الخير والصلاح، إلى جانب ذلك فقد كان هناك ما يسمى «الشريعة» وهى الخيمة التى تنصب فى القرية لتعليم أطفالها، وكان هناك أيضا الكتاب أو ما يسمى الـ (مسيد) وهى تحريف لكلمة مسجد وكان يفد عليه الأطفال من ذكور وإناث وتركز التعليم على القرآن الكريم، والحديث والعلوم العربية والإسلامية. وإلى جانب ذلك فقد بنى الأتراك بعض المدارس ومع كل ذلك فإنه يمكن القول أن الجزائر عانت مثل بقية بلاد المسلمين من تأخر علمى، وعدم القدرة على الإبداع حيث انحصر الجهد العلمى فى الحفظ، وكتابة الشروحات والحواشى والتعليقات دون أن تظهر ملكة الإبداع، كما أهملت العلوم العقلية مثل الكيمياء والطب والفيزياء وغيرها.

ومما سبق يتضح أن الوجود العثمانى فى الجزائر لم يكن فى يوم من الأيام وجودا استعماريا بل هو وجود اقترنت بدايته بظروف دولية اقتضت ضرورة استنجاد الجزائر بالعثمانيين فى بداية القرن السادس عشر لاتقاء خطر الهجمة الصليبية على بلادهم. كما يتضح روح المواجهة والاستبسال التى تجسدت فى عروج وأخيه خير الدين خلال الوقوف أمام عنف الهجمة الصليبية على منطقة المغرب، وعجز واهتراء الكيانات السياسية المحلية التى كانت موجودة والتى لم تتحرك للتصدى لهذا الخطر وإنما حاول بعضها التواطؤ معه خدمة لأغراضها الذاتية وتفضيلها مصالحها الشخصية على المصلحة العامة.

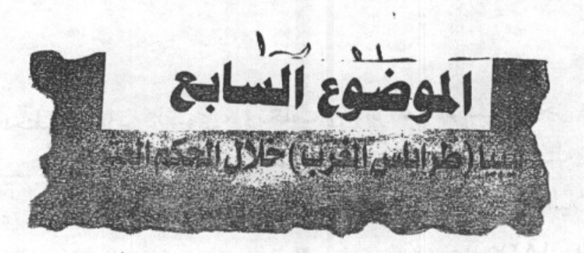
وإلى جانب ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دورا هاما فى الدفاع عن الجزائر، وقامت بمهمتها تاريخيا على أكمل وجه، وفى أروع صور التضحية والفداء ليس من أجل الجزائر فحسب وإنما كذلك من أجل الدفاع عن الإسلام، والوقوف فى وجه التسلط والسيطرة الأوروبية.

وعندما اختلت موازين القـوى، وتخلف الجزائر عن الركب وعجز عن المشـاركة فى السـباق انعكس ذلك سلبـيا على قـوتها العـسكرية المتمـثله فى البحـرية مما أدى فى النهاية إلى عـدم القدرة على المحافظـة على أمن البلاد، وانتهى الأمـر بالأزمة التى اندلعت بين الجـزائر وفرنسـا فى عام ١٨٢٧ والتى انتهت بالاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠.



عُملات ذهبية وفضية ضرب طرابلس

فى العهد التركى العثمانى



بعد أن وقعت طرابلس الغرب فى يد الإمبراطور الإسبانى «شارل الخامس» فى عام ١٥١٠ ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا، الذين كانوا يتخذون من مالطة مقرا لهم.

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار، واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الدينى حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الإسلامى لهذا الإقليم العربى الإسلامى، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس جيبا صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية التى تجوب البحر المتوسط، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الإسلامية المطلة على البحر المتوسط، ولكنهم اصطدموا بالشعور الدينى الإسلامى المتأجج فى نفوس الأهالى. فقد عمد أهالى طرابلس إلى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الإسلام مستعينين فى ذلك بالمجاهدين المسلمين التى كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج وخير الدين، ولكن إمكاناتهم الحربية وجهودهم البشرية حالت دون ذلك خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة، وتدعيم قلعتها، هذا بالإضافة إلى تحالف «الحسن الحفصى» حاكم تونس معهم ومساندتهم، مما دفعهم إلى الاستنجاد بالسلطنة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل. فأرسلوا وفدا إلى السلطان العثمانى «سليمان القانونى» يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبى، ويعلنون ولاءهم له، والانضواء تحت السيادة العثمانية. وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى أن الاستيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثمانى على أقطار المغرب العربى، كما أن فيه إنقاذا لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة الصليبية، ومن حركة التنصير التى كان يرغب الإسبان صبغها بهم.

ونتيجة لذلك أرسل السلطان حملة إلى طرابلس الغرب بقيادة «سنان باشا» قائد الأسطول التركى فى ١٣ شعبان ٩٥٨هـ/ ١٦ أغسطس ١٥٥١م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها. وقد تكونت هذه الحملة من مائة وعشرين سفينة يساندها خمسون أخرى وستة آلاف جندى، وأربعين مدفعا. وقد قام «سنان باشا» بمحاصرة المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت إلى الاستسلام، وفتح أبوابها للأتراك، وإجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء إلى مالطة.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية، وقاعدة للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط، ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء، وإلى أفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة إلى جعلها ملجأ للسفن القادمة من الغرب، والمحملة بالحجاج وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة.

ويقسم المؤرخون الحكم العثمانى فى ليبيا إلى ثلاثة أقسام هى:

١- العصر العثمانى الأول والذى استمر فيه الحكم العثمانى المباشر لهذه البلاد. وهذه الفترة تنحصر ما بين عامى ١٥٥١/١٧١١م.

٢- حكم الأسرة القره مانلية ١٧١١-١٨٣٥م.

٣- العصر العثمانى الثانى ١٨٣٥-١٩١١م.

وفيما يلى نعرض لذلك:



بعد فتح العثمانيين لطرابلس، قام «سنان باشا» بتنظيم شئونها، فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شئون إدارتها، ثم اتجه بعد ذلك إلى استنبول حيث صدر فرمان سلطانى بتعيين «مراد أغا» فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك.

وقد واجه «مراد أغا» فى مستهل عهده مشاكل عديدة كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة، وترميم القلعة، وتنشيط الحياة العامة فى البلاد، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسبانى وعهد فرسان القديس يوحنا.

وقد عمل «مراد أغا» على إعادة الاستقرار إلى طرابلس، فدعا سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة إليها، وشجعهم على العمل فى استثمار الأرض الزراعية، وإنشاء البساتين كما شجعهم على العمل فى الصناعة مما أدى إلى عودة الحياة إلى مرافق المدينة، كما نجح فى زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية القريبة منها.

وقد اهتم مراد أغا بالناحية الدفاعية للمدينة، مما أفشل الخطط الصليبية لاستعادتها.

واستمر مراد أغا فى حكم طرابلس حتى عام ١٥٥٦م حيث أدركته الشيخوخة، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى «تاجوراء»، وأنشأ مسجده المشهور بها. ويقال: إنه استعان فى بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا وجعله على شكل حصن، ويعد هذا المسجد من أهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة فى ليبيا.

وفى أعقاب وفاة «مراد أغا» صدر أمر سلطانى بتعيين «درغوث باشا» واليا على طرابلس الغرب فى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٦م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحى المعمارية فى طرابلس التى جعل منها عاصمة فى الشمال الإفريقى، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط. وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها «درغوث» قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول الصليبية، ورد الأخطار عن ديار الإسلام، واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية.

وقد نجح «درغوث» فى القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا فى طرابلس، ومد النفوذ العثمانى إلى معظم السواحل الليبية. ونتيجة لذلك شهدت طرابلس انتعاشا بعودة السيادة الإسلامية إليها فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى أثناء الاحتلال الإسبانى وفرسان القديس يوحنا وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركات العسكرية بها، وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ضمن القوات العثمانية. وقد حرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى. وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية. وقد انصرف اهتمام «درغوث» فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها فأقام «برج التراب» على الجانب الشمالى الغربى من سور المدينة الأصلى، كما أنشأ مسجده المعروف فى عام ١٥٥٤م والذى لا يزال قائما حتى الآن، وبنى لنفسه قصرا كبيرا كما أنشأ دارا للبارود لا تزال آثارها قائمة حتى الآن.

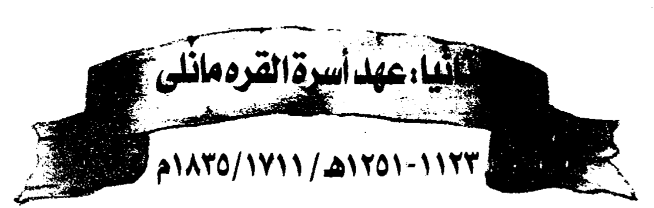
وعلى الرغم من الظروف الحربية التى واجهت «درغوث» فإنه استطاع تطوير مدينة طرابلس وتجميلها مستعينا فى ذلك بالأسرى الذين كانوا فى حوزته.

ونتيجة للتحصينات التى أقامها «درغوث باشا» لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون فى الهجوم على طرابلس، أو التفكير فى غزوها بل اتجه فكرهم إلى تشجيع الأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة.

وبعد وفاة «درغوث باشا» تولى «يحيى باشا» الحكم فى طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه «محمد بك» الذى ثار الأهالى ضده، ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه «علج على» الذى عمل على تحصين مدينة طرابلس وتقوية دفاعاتها، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود؛ لذلك سمى بدار البارود وخلال ذلك نشط «علج على» فى جهاد الإسبان، ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثمانى.

وخلال تلك الفترة، ورغبة من الدولة العثمانية فى الحفاظ على وجه هذا الإقليم عربيا وإسلاميا استمر الباب العالى فى إرسال فيالق الإنكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أى هجوم قد يقع عليه من جانب الإسبان أو فرسان القديس يوحنا. كما اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس، ونظرا لاستمرار فيالق الإنكشارية فى هذا الإقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات، وامتلكوا الأراضى الزراعية وأشجار النخيل، وكان حصيلة هذه الزيجات نشأة طبقة عرفت باسم «القولوغلية».

وقد تعاقب على أمر البلاد فى هذه المرحلة ولاة كانوا أقل شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم، كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات، والثورات المستمرة التى كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وصل «أحمد القره مانلى» أحد رجال الإنكشارية إلى أريكة الحكم.



أسس هذه الأسرة أحمد القره مـانلى، وهو سليل أسرة تركية تنتمى إلى بلدة قره مـانيا الواقعة جنوبى هـضبة الأناضول بآسـيا الصغرى، وكـان يمتلك شخـصية قوية طـموحة واسعـة الحيلة ساعـدته على أن يتغلب على كثـير من المصاعب التى تعـرض لها. فقد وقف مـوقف المتفرج من الخلافـات التى كانت قائمة بين الـباشا والديوان وجند الإنكشارية والقولوغليـة، وأظهر عدم انحيازه لأى فريق، حتى فـاز برضاء الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجـند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعـيان طرابلس حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس ١١٢٣هـ/ ١٧١١م بدلا من الوالى المعين من قبل السلطان، والذى كان غائبا عن البـلاد وقتذاك. ومع ذلك فقد ظلت الصعوبات تواجه «أحـمد القره مانلى» فى الخارج والداخل، فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حماة لتأديبه، ولكنها فشلت فى مهمتها مما جعل السلطان «أحمد الثـالث» يصدر فرمانا ثبته فيه فى حـكم طرابلس ومنحه لقب الباشوية، كما جعل حكمه وراثيا فى أسرته.

أما فى الداخـل فقد تمكن من القضاء على فتن الـضباط الانكشـارية الطامعـين فى الحكم والراغبين فى بقاء مقاليد الأمور بأيديهم وذلك بعد أن تخلص منهم بمكيدة دبرها لهم فدعاهم إلى حفل فى منزله الريفى ثم أمر رجاله بذبحهم.

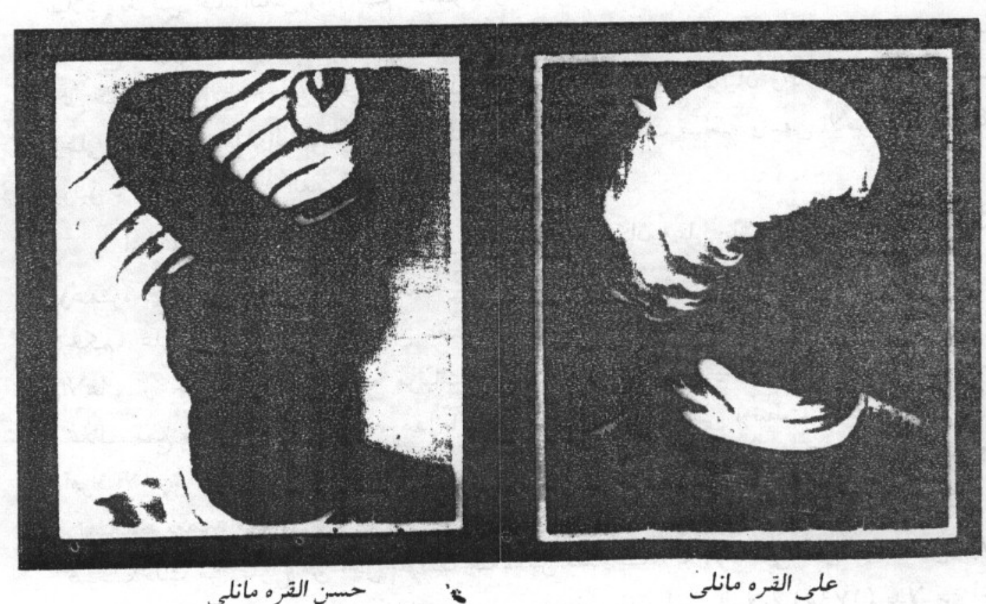
وقد اعـتمد أحـمد باشا على العنصـر الوطنى فى الجيش والإدارة فأوكل الأعـمال الإدارية لأبناء البلاد، وجعل اللغة العربية اللغـة الرسمية فيها، كما كان يتولى بنفسـه قيادة الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخليـة. وقد استطاع أن يسـتعيـد السيطرة على إقليم فـزان الذى كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية، وبذلك تمكن من فتح طرق التـجارة عبر الصحراء من أفريقيا، وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية فى جنوب وغرب القارة بطريقة منتظمة.

وقد اهتم «أحمد القره مانلى» بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التى لا تدفع له الإتاوة، كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجـهة كافة الاحتمالات والتهديدات التى تضمن عدم مهاجـمة الشواطئ الليبيـة بواسطة السفن الأوروبية من الخارج، وإخمـاد كل محاولة لإثارة الفتن والتمرد ضد حكمه فى الداخل. . لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته، فبدأ بتجديد أسوار طرابلـس وتقويتهـا، وشرع فى إنشـاء الأبراج، وعنى بتزويد الحـصون بمدافع من عـيارات كبيرة، وأرسل الأموال والهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجيدة من الأسلحة.

وقد اتسمت عـلاقات «أحمد القره مـانلى» مع الدول الأوروبية بالعداء بسبب مهـاجمته للسـفن الأوروبية فى عرض البحـر المتوسط، وفرض إتاوات عليها، وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشـروطه ضمانا لسلامة سفنها، وكانت إنجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت إلى دفع الإتاوة حتى تأمن عـلى سفنها العـاملة فى البحـر مما أدى إلى حصـوله على الأموال الكثيرة والغنائم.

وفى عهـده هاجم الفرنسـيون طرابلس بثلاث عـشرة قطعة بحـرية ردا على الإهانات التى ألحقها البحـارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين ورغبـة فى إطلاق سراح أسراهم. ولكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذى تعرضت له طرابلس من مدافع الأسطول الفرنسى.

وبالنسبة للنواحى العـمرانية فقد استطاعت شخصـية «أحمد القره مانلى» أن تحفـر بصماتها على الحركة العـمرانية تتجلى آثارها الباقـية فى المسجد الجميل الذى يحـمل اسمه، والذى بدأ فى بنائه عام ١٧٣١ وانتهى منه فى عـام ١٧٣٧ وألحق به مقبرة ومدرسة، وفى البـيوت والمخازن التى بناها فى القلعة هذا إلى جانب إمداده لمدينة طرابلس بالماء لنفع أهلها، وقيـامه ببناء «فسقية» لسقى أهل السفن على البحر.



على القره مانلى　　　*حسن القره مانلى*

والحق أن أحـمـد باشا كـان من الولاة القـلائل الذين خلفـوا طابعـهم المعمارى على مدينة طرابلس.

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوروبية، والولايات المتحدة معـاهدات معها حتى يمتنعوا عن التـعرض لسفنهم فى نظير دفع الإتاوات الباهظة والهـدايا الثمينة لهـم مما أكد استقـلاليتهم الواضـحة عن العثـمانيـين وأثبت أن العلاقـة معهم لا تزيد عـن علاقة اسـمية تتـسم بالولاء للسلطان العثمانى، وترتبط بالصـلات الروحية مع الدولة العثمانية، واستـمر أحمد باشا فى حكم ولاية طرابلس مدة ٣٤ عـاما استطاع خلالها تثـبيت حكم الأسرة القره مـانلية فى ليبيـا، وتأكيد وحـدة هذه البـلاد، وقـد خلف «أحـمـد القـره مـانلى» فـى الحكم ابنه «مـحـمـد باشـا» (١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م) فقد أجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة، يضاف إلى ذلك أنه ورث حكم البلاد الليـبية بعـد أن استقـر أمرها، وزادت إيراداتها، وأصـبحت مهـابة الجانب من الدول الأوروبية البحرية فقد تسارعت هذه الدول إلى عقد المعاهدات معه ودفع الإتاوات له. وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأى الآستانة.

ومع ذلك فلم تخل فتـرة محمـد باشا من فتن وثورات، كان من نتـيجتهـا اضطراب أمور البلاد وتعرض حياة الناس وأرزاقهم للخطر، وانتشـرت أعمال اللصوصية والسلب والنهب لدرجة أن ضج الناس، واستصرخوا الباب العالى، وزاد الطين بلة انقسـام الأسرة القره مانلية على نفسه مثل فتنة «أحمد بن حـسن كخيا» صهر الباشا وإخوته، ومـؤامرة الألبان والأرناؤوط لخلع الباشا. وعلى الرغم من نجاح الباشا فى إخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الأمر بوفاته فى ٤ يوليو ١٧٥٤م، وله من العمر ٤٥ سنة.

أما الحاكم الثـالث من أفراد الأسرة القره مانليـة فكان «على باشا» الذى تولى أريكة الحك وعمـره ثلاث وعشـرون سنة، وكان لحداثة سنه أكبـر الأثر فى مشـاركة قادة الإنكشـارية له فى الحكم، على أن أهم الأحـداث التى عصـفت بحكمـه تمثلت فى المجـاعة وانتـشار الطاعـون بين الأهالى وعجز الحكـومة عن دفع مرتبات الجند والأساليـب التعسفيـة التى لجأ إليها رجـال البا خلال جمع الأمـوال من القبائل، هذا بالإضـافة إلى الأحداث التى ارتبطت بالشقـاق العائلى بين أفراد الأسرة القره مانلية والخلاف بين «حسن القره مانلى» وأخيه «يوسف» الذى انتهى بمقتل الأ واستعـانة بعض أفراد الأسرة بباشـوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة القره مانـلية من الحكم و صحب ذلك من صراع من أجل عودتها إليه، كل ذلك كـان له أثره على الحياة العامة فى البلا وانتهى الأمـر بصدور فـرمان سلطانى بتـولى «يوسف بك» أمور الولاية (١٧٩٥) بدلا من أخ

«أحمـد الثانـى» الذى كان أحق منه بالولاية. ولتـوضيح الوضع العـام الذى كانت عليه ليبيا خلال هذه الفـترة، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتـصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخيـن يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت فى أسوأ حال غداة استيلاء «يوسف باشا القره مانلى» على السلطة وكان عليه أن يواجه كـثيرا من المتاعب فى سبيل تأكيـد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهة التزاماته العامة، ومهما كان الرأى حول الطرق التى سلكها هذا الرجل فى الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشىء من الاستـقرار والانفتـاح على التطور الحضـارى فى عهده، مما كـان له أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد.

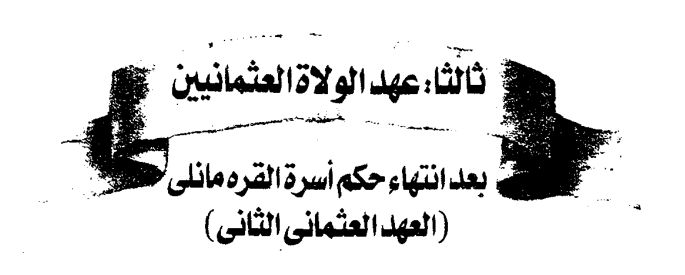
وقد اهتم «يوسف باشـا» بتشجيع حركـة الملاحة، وإعادة تنظيم البحـرية التى كانت تشكل المورد الرئيسى للبـلاد، كما اهتم بمتـابعة الأحداث فى البحـر المتوسط والصراع القـائم بين إنجلترا وفرنسـا، وقام بتشجـيع حركة القرصنة التى كـانت تدر على خزانته المال الذى يمكنه من تثـبيت حكمه، وخلال ذلك كانت علاقة يوسف باشا بفرنسا ودية، مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصـر وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر إليـها من فرنسا بطريق لـيبيا بعد تدمـير الأسطول الفرنسى فى موقعة «أبى قـير البحرية» مما أدى إلى استياء إنجلترا والدولة العثـمانية أيضا من موقف يوسف باشا، فـفى الوقت الذى كان يريد فيه السلطان الـعثمانى إخراج الـفرنسيين من مـصر نجد يوسف باشا يسـاعد الفرنسيـين على البقاء فى مصـر. ونتيجة لاستـياء الدولة العثمـانية من ذلك الموقف عدل الباشا عن موقفه، وحاول استـرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسـا. أما عن عـلاقة «يوسف باشـا» بالولايات المتحدة فـلم تكن طيبة نـتيجـة لتعـرض السفن الأمريكية العاملة فى البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية، وإجبارها على دفع الإتاوات. ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتـحدة معاقـبة الباشـا عن طريق حصار ميناء طـرابلس وضربه بالقنابل، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى «فيلادلفيا» على الشاطئ الليبى فى ٣١ أكتوبر ١٨٠٣ فأسرها جنود «يوسف باشـا» بما عليها من بحارة ورفضوا إطلاق سـراحهم إلا إذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الإتاوات التى تفرض على سفنها.

ونتيـجة لقرارات مؤتمرى فـيينا (١٨١٥) وإكس لاشابل (١٨١٩) بتـجريم عمليـة القرصنة البحـرية وتحريمها تـوقفت الدول الأوروبية عن دفع الإتاوات مما أدى إلى نضـوب خزانة «يوسف باشا» مما دفعـه إلى الاقتراض من الأجانب، وفرض الضرائـب على الأهالى واتباع أسلوب الشدة والبطش ضـد مـعـارضيـه. وانتـهى الأمـر بتـخليـه عن الحكم لابنه على فـى ربيع الآخـر ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

وقد بذل «على القره مانلى» جهوده لإعادة الأمن والنظام إلى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التى فرضها والده.

ومع ذلك فقد استمرت الثورات، نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الفتن، وعدم انتظام الأمور مما أدى فى النهاية إلى القضاء على حكم الأسرة القره مانلية فى ليبيا تماما فى المحرم من عام ١٢٥١هـ الموافق ٢٦ مايو ١٨٣٥، وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الأحوال المضطربة، فهيأت لذلك حملة كبيرة مكونة من ٣٢ سفينة بقيادة «مصطفى نجيب باشا» وصلت إلى طرابلس حيث قابلها الأهالى بكل مظاهر الحماس. وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الإستراتيجية فى طرابلس وفرض الحكم العثمانى المباشر على الإقليم حيث قرأ «نجيب باشا» أمام أعضاء الديوان الفرمان السلطانى بعزل «على باشا» وبأنه يجب أن يذهب هو وأسرته ومن يريد أن يصحبه معه إلى الآستانة ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية، وأبلغهم بذلك، وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القره مانلية.

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطع خلاله تنمية أمور هذه البلاد أو المحافظة على شئونها مما أدى إلى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الأهالى ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها.



ثالثا: عهد الولاة العثمانيين

بعد انتهاء حكم أسرة القره مانلى

(العهد العثمانى الثانى)

تولى شئون ليبيا فى الفترة بين ١٨٣٥-١٩١١ وهى الفترة التى يطلق عليها العصر العثمانى الثانى ثلاثة وثلاثون واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة إلى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد، وتدعيم سلطة الحكومة فى مدينة طرابلس والمناطق الداخلية، هذا بالإضافة إلى تعقب شيعة الأسرة القره مانلية المعزولة.

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت فى الموقف المعادى من زعماء الداخل مما تطلب منها حشد قواتها للقضاء على عصيانهم وخاصة بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس فقد «اهتم نجيب باشا» أول وال عثمانى بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة أو إعلان طاعتهم للحكم الجديد، ومع أن «غومة المحمودى» أحد زعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة، ومساندة الموقف الموالى للحكم الجديد فإن الوالى التركى لم يطمئن إليه وأودعه السجن، كما قام بحركات قمع واسعة النطاق فى المناطق المجاورة لمدينة طرابلس وخاصة ضد أهالى الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب، وأظهروا رغبتهم فى التمسك بالحكم الذاتى، وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره فى استسلام بقية المناطق المجاورة لطرابلس.

وقد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكرى صارم تمثل فى سياسة القوة التى سلكتها الحكومة العثمانية.

وخلال تلك الفترة ازدادت الأوضاع سوءا بعد أن انتشر مرض الطاعون فى ليبيا، وارتفع عدد ضحاياه، مما أدى إلى هجرة معظم السكان للبلاد.

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال «رائف باشا» على ترقية شئون البلاد. أما الباقون فقد كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنة فلا يكاد أحدهم يستقر فى ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره؛ لذلك كان الوالى يسعى بمجرد وصوله إلى البلاد فى جمع أكبر مبالغ ممكنة من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه فى منصبه لن يطول؛ لذلك لم يهتم الولاة بأى عمل جدى فى الولاية، كما صرفوا وقتهم فى إخماد الثورات التى اتسع نطاقها، فقد تزعم «عثمان أغا»

الثورة فى «مصراتة» وأكد «عبد الجليل سيف النصر» سيطرته على فزان، وقاد «غومـة المحمودى» الثورة ضـد الحكومة فى «يفرن» بالجـبل الغربى، هذا إلى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم.

وقـد نجحـت هذه الثورات فى إجـهـاض مـحاولات الحكـومة إعـادة الاستـقرار إلى البلاد، وزاد الطـين بلة تعرض البلاد للمـجاعـات بسبب قلة الأمطار وانتشار الجفاف، وتوقف الحصول على الإتاوات من السفن الأوروبية.

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمـل فى الإصلاح لم ينقطع، فقد قام بعض الولاة بعدد من الأعـمال العمـرانية والتنظيمـات الإدارية والإنشاءات العسـكرية توضع فى سجل تاريخهم. فلما تولى «على عسكر باشا» (١٨٣٨-١٨٤٢) شئون ليبيا أتم ترميم المساجد، وبناء دار جديدة للحكومة، وعندمـا تولى «محمد أمين باشا» الحكم (١٨٤٢-١٨٤٧) اتبع سيـاسة التسامح مع خصومه فأطلق سراح المعتقـلين وألزم الناس بالطاعة والإذعان، وقد هيأت مدة حكمه الطويل الفرصة لإجـراء بعض التنظيمات الإدارية التى شمـلت القضاء والإدارة والشئون الماليـة فتم تنظيم الأقسام الإدارية فى الولاية وأنشـئت المجالس المحلية، ووضعت السجلات المتنوعـة، وأعيد تنظيم الضرائب من حيـث فرضها وجمـعها، ولعل من أبرز أعمـاله المتنوعة إنشاء المستشـفى العسكرى بطرابلس.

وفى ولاية أحمـد عزت باشـا (١٨٤٨) التى تميزت بالهـدوء فى بدايتهـا تم عمل إحـصاء للسكان، كما تم زيادة عـدد أفراد الحامية، وقـد صرف هذا الوالى جهده إلى تحقـيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف فى وجـه السياسة الفرنسية التى كانت ترمى إلى توطيد أطمـاعها فى الشمال الأفريقى.

وقد تميزت فترة عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوروبى والوقوف فى وجه الأطماع الأجنبية.

وفى ولاية «محمود نديم باشا» (١٨٦٠) والتى بلغت سـبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة، فقد اهتم هذا الوالى بتطوير الأوضاع العامة فى البلاد، وتطوير مزروعاتهـا ومصنوعاتها. كمـا قام بعمل تنظيم إدارى جديد لليـبيا فأنشأ المحـاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالى، ففـى عهده تم إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتـجارية، وفى عهده أنشـئت أول مطبعـة فى طرابلس، وصدرت أول جـريدة بمدينة طرابلس باسم (طرابلس الـغرب) وكانت تصدر بالـتركية والعربيـة، وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البـريد وتم توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الأسـواق ودور التخزين وفى عهده تم فتح بوابة جديدة لميناء طرابلس من الناحـية الغربية لعمـران تلك الجهة، وتسهيـلا لسبل الاتصال بين سكان

المدينة والقرى المجاورة. كما اهتم الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجرى فى ليلة عاشوراء من قيام بعض الرعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدورون به فى أزقة وحوارى البلاد.

وما من شك فى أن طرابلس نعمت فى عهد هذا الوالى بالكثير من الهدوء والاطمئنان، فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من رغبة فى تطويرها والنهوض بها.

وفى عهد «الفريق على رضا» (١٨٦٧) الذى جمع فى شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالى تم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامة مثل تسوية الطرق والمعابر فى داخل المدن وخارجها وتنظيم شئون البريد، ومد أسلاك التلغراف برا من طرابلس إلى الخمس ثم إلى الحدود التونسية، وتشجيع حفر الآبار الارتوازية، وربط الأودية ومدها بالترع والسواقى، وتأسيس سوق العزيزية والحديقة العمومية وإنشاء الساعة التى لا تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة بطرابلس، والتى تعد من المعالم الأثرية الباقية التى توضح قدرة هذا الوالى على تجميل هذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة أنه حظى بتعاطف وإعجاب الأهالى.

وفى ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير، فازداد النمو فى مبانيها، وتم تبليط شوارعها، كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالى على الماء.

وإلى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء فى عام ١٨٨٣ كما تم فى عهده إنشاء الرصيف الذى عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بهدف حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر.

لقد كان الأثر العمرانى الذى خلفه أحمد راسم باشا على طرابلس واضحا، ولا شك فى أن أعماله العمرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجميلها تضعه ضمن الولاة الذين تركوا أثرا فى الحياة العامة بليبيا، فقد نعمت البلاد فى عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا فى كافة مرافقها، وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية.

وجاء بعد راسم باشا، نامق باشا الذى استمر فى الاهتمام بالتجهيزات العسكرية، ووجد صعوبة فى فرض التجنيد الإجبارى، ومن الإنشاءات الهامة التى تمت فى عهده تأسيس مدرسة الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه.

وفى عهد الوالى حافظ باشا تم العمل على تنظيم الإدارة، وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقصرا ومع ذلك لم يتركوا أى أثر فى الحياة العمرانية يذكر لهم.

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة فى تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالى طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء انتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم فى مجلس المبعوثان بالآستانة، ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الأسلوب المركزى فى الحكم وعينوا فى ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد، وحاولوا فرض سياسة التتريك التى كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم.

وهكذا لم يرتبط الحكم العثمانى فى ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والأخذ بيدها، بل كان هذا الحكم فى مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة وخاصة أن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب فى وقت قلت فيه الأموال فى أيدى دافعيها. يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر فى هذه الولاية لتحسين المواصلات أو التعليم أو للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة، وفضلا عن ذلك فإن النظام الإدارى فى هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ، وكان من هؤلاء السنوسيين الذين اختصوا بالأمور المحلية فى العديد من المناطق التى قامت فيها الزوايا السنوسية وخصوصا فى فترة العهد العثمانى الثانى. فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين العثمانيين والأهالى. فقد قبل الأهالى الزعامة السنوسية كممثلة لهم وناطقة باسمهم. واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه، فقد جاء أول اعتراف رسمى بالسنوسية فى فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الأول (١٨٥٦) سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم، وأعفى زواياهم من الضرائب، كما ثبت السلطان عبد العزيز (١٨٦١) هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية «حمى» يمكن للناس أن تحتمى فيه، وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) على بقاء علاقات المودة مع السنوسيين. وفى نظير ذلك تكفلت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الأهالى فى المناطق النائية، كما اعترفت بفكرة الخلافة العثمانية والدعاء للسلطان العثمانى على منابر المساجد يوم الجمعة على أساس أن الإسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة؛ لذلك فإنه يحق لآل عثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، وبذلك يصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شئون الدنيا للمسلمين إلى جانب شئون الدين.

ونتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين، وزاد أتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية دينيا وزمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية. واستمرت الأمور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميد الشكوك فى نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الأوروبيين ضدهم لدرجة أصدرت معها الدول

العثمانية أوامرها إلى موظفيها بجمع ضرائب على ما تنتجه أراضى الزوايا ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك.

وعلى أى حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب أحوالها تطلعت إيطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادى والثقافى فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما فى كل من طرابلس وبرقة عام ١٩٠٥ ذلك البنك الذى لم يقتصر دوره على الأعمال البنكية، بل نشط فى عمليات الرهن والتسليف مع الأهالى، وإقراض الأموال لأصحاب الأراضى الزراعية ثم سلبها منهم، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية فى ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية، وأنشأت المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء، وأنشأت مكتبا للبريد فى بنغازى وإلى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية فى ليبيا ومسح أراضيها، هذا فى الوقت الذى لم تقم فيه الدولة العثمانية بأى عمل جدى لوقف التوغل الإيطالى فى ليبيا.

ولكى تبرر إيطاليا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك فى ليبيا، وطالبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد، والنهوض بها. وبعد أن تهيأت الأذهان أمام سيطرة الإيطاليين على ليبيا طالبت إيطاليا الدولة العثمانية فى سبتمبر ١٩١١ بعدة مطالب لها فى ليبيا هى:

١- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازى ودرنة.

٢- تشكيل قوات عسكرية فى هذه المناطق تحت قيادة ضباط إيطاليين.

٣- أن تكون إدارة الجمارك فى ليبيا تحت أيدى موظفين إيطاليين.

٤- أن يتم تعيين والى طرابلس بموافقة إيطاليا ورضاها.

ولم تكتف إيطاليا بذلك بل وجهت إنذارا إلى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا، وتجاهل رغائبها فيها، ومعارضة مشروعاتها هناك رغم مصالحها الحيوية فى هذه البلاد، هذا إلى جانب قيامها بتحريض الأهالى على الرعايا الإيطاليين بخاصة، وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة مما جعلهم يخشون على حياتهم، ويشرعون فى الهجرة من هذه البلاد. ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية اضطرت حرصا على مصالحها وشرفها إلى احتلال طرابلس وبنغازى احتلالا عسكريا، وقد صدرت الأوامر إلى السفير الإيطالى فى الآستانة بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الإنذار فى مدة أربع وعشرين ساعة وإلا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة إلى احتلال ليبيا.

وعند تحليلنا لهـذا الإنذار نجده يثيـر الدهشة والاستغـراب ولانجد سببـا واحدا معقولا من الأسباب التى وردت فيـه يدعو إيطاليا إلى القيام بهذا العمل العـدائى. فهل من المنطقى أن تهـدد إيطاليا باحـتلال المدن الليـبيـة لأن الدولة العثمـانية لم تعمل على النهوض بهذه البـلاد. وهل من المنطق أن تهدد إيطاليا بالاستيلاء على ليبيا لأن الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات اقتصادية، وتناقض حقوقها فى هذه البلاد؟

وللإجابة على ذلك نجد أن إيطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء أحوالها فى تحديها والافتراء عليها، كما أنها أرادت أن تحول أنظار الشعب الإيطالى إلى الخارج حتى تبعده عن التفكير فى مشاكل بلاده الداخلية.

وكان رد الدولة العـثمانـية على هذا الإنذار ضعـيفا، حـيث حاولت التنصل من اتهـامات إيطاليا لهـا، وأظهرت حسن نيتهـا تجاه الإيطاليين ومشـروعاتهم الاقتصـادية فى طرابلس وبرقة، ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب، وحسم النزاع بينهما بالطرق السلمية مقابل أن تعطى إيطاليا مركزا ممتازا فى ليبيا، كما قامت الدولة العثمانية بإرسال برقيات إلى الدول الأوروبية تطلب منها التوسط فى الأمر، ولكن إيطاليا رفضت كل هذه المحاولات، وأعلنت الحرب على الدولة العثمـانية فى ٢٩ سبتمـبر ١٩١١، وبدأت فى محاصرة طرابـلس مدة ثلاثة أيام حتى سقطت بعد قتال غيـر متكافئ حدث خلاله مجزرة بشرية تمثلت فيها أفـظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احـتلال الموانى والنقط الساحليـة فى ليبيا فـى أكتوبر ١٩١١، أما باقى المناطق فـقد ظلت فى أيدى القوات الوطنية التى وقفت للإيطاليين بالمرصاد.

وقد واجـه المجاهدون الجيش الإيطالى فى مـعارك طاحنة استبـسلوا فيهـا ولكن الفارق فى التسليح والإمكانات كان له أكبر الأثر فى حسم المعركة لصالح إيطاليا.

وبعد أن عجزت الدولة العـثمانية عن مد يد العون الفعليـة إلى الأهالى وفشلت قواتها فى مواجهة الموقف اضطرت إلى عـقد معاهدة «أوشى لوزان» مع إيطاليا والتى انسحـبت بمقتضاها من ليبـيا فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ وتركـتها لقمـة سائغة للإيطاليين، كـما تركت أهلها يقاومـون الجيش الإيطالى بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة.

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العـثمانية من ليبيا تاركة الزعامـة السنوسية تقف بمفردها فى مقاومة الاستعمار الإيطالى مما كان له أكبر الأثر فى تطور الموقف فى غير صالح الليبيين، هذا عن تاريخ ليبيا فى العصر العثمانى وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الإيطالى، ويبقى لدينا فى هذا الفصل التعرض لنظام الحكم العثمانى ولأحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية فى ظله.

١ - نظام الحكم العثماني في ليبيا:

كان لموقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية، وبعدها عن مقر السلطة أكبر الأثر في رغبة الحكومة العثمانية إلى قصر مدة الوالي مخافة أن يستقل بالبلاد، مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثماني أية سياسة متكاملة يمكن أن يطلق عليها حركة عمرانية. حقيقة أنه خلال فترات الهدوء والأمن تعاظمت بعض الأعمال العمرانية ولكنها كانت فردية؛ فقد اهتمت الدولة العثمانية بإقليم طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم به مدنيا، كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية في الداخل، وأدى إلى إضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة في كثير من الأحيان، وانحدار هيبة الوالي، وكثرة الفتن والثورات وخاصة في مناطق القبائل. لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل وال يساعده نائب يسمى «الكاهية» و«خازندار» يختص بشئون الخزينة، إضافة إلى الكتبة، والمستشارين، وقاضي الجند، والموظفين الإداريين ووكيل الجباية والخراج، وإلى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسلون من إستنبول.

وقد قسمت ولاية طرابلس إلى قسمين: الأول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان، والثاني بنغازي ويضم المنطقة الشرقية. وقد مرت طرابلس بفترات قوة وفترات ضعف فعندما تكون سلطة الحكومة قوية تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الأعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها، وعندما تصبح الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية، وتصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام. ومع كل ذلك فقد نظر الأهالي للعثمانيين نظرة حماة الإسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان أو فرسان القديس يوحنا.

وبالنسبة للضرائب وطريقة جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة، والطرق المتفقة مع الشريعة الإسلامية، فطبقت ضريبة العشر، والخراج، والمكوس الجمركية، والضريبة الشخصية وضريبة الأملاك على العقارات والدواب.

وإلى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا في اقتصاديات البلاد، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية، ويوزعون ما يغنمونه منها بعد اقتطاع الخمس للحكومة.

٢ - مظاهر الحياة الاقتصادية في ليبيا خلال الحكم العثماني:

أ- الزراعة

انقسمت الفلاحة في ليبيا إلى قسمين: قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه، وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توافر المطر، وكان إنتاجهم يزيد عن حاجات الأهالي، ويصدر الفائض منه إلى موانى إسبانيا عن طريق البحر. وإلى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وأنواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديدة من الزيتون.

أما القسم الآخر وهم أصحاب الأراضى من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفى غاية الخصب، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية فى ليبيا وغيبة سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالى إلى التجارة أكثر من ميلهم إلى الزراعة.

ب- التجارة الداخلية

كان يوجد بمدينة طرابلس عدة أسواق نذكر منها:

- سوق الربع وكان يعد أشهر الأسواق بالمدينة، وهو على شكل أربعة صفوف، وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف السلع والبضائع مثل اللآلئ والذهب والجواهر والتوابل والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية.

- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات.

- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهى ولا يقدم فيه غير شراء القهوة، وكان يقصده الأتراك غالبا ليرتشفوا فيه بعض فناجين القهوة.

- سوق الترك وكان يقوم التجار الأتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم فى متاجرهم الصغيرة به، وهى سوق صغيرة بها دكاكين ذات واجهات زجاجية يستطيع المرء أن يشترى فيها معظم ما يريد. ومع أن طبيعة هذا السوق شرقية فإن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوروبية الصنع.

- سوق الترزية وفيه يركض النساجون لبيع أقمشتهم حيث يجرى المزاد العلنى، وفيه يجلس اليهود والمالطيون للخياطة وبيع الأنسجة المختلفة.

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أسواق للبقالة والملابس النسائية والحريرية والأوانى النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية، هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء والذى كان يجتمع فيه العديد من الأهالى من أجل البيع والمبادلة وعقد الصفقات.

جـ - التجارة الخارجية:

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية فى هذه الفترة كانت محدودة، فقد ظلت مدينة طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوروبية وخاصة إيطاليا، كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق، والعائدة من الغرب إلى الشرق. وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية، كما كانت إقامتها عدة أيام

بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير الدمشقى الإيطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوافرة فى أسواق طرابلس، وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب وكان الميزان التجارى مع أوروبا فى عهد أسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس، إذ إن قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات.

وإلى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجارى مع بعض المناطق الأفريقية أمثال تومبكتو وبورنو، فقد كان يأتى منهما بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء، كما كان يجرى تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة، والفواكه المجففة وبعض التوابل، هذا إلى جانب القمح والشعير والأبقار والأغنام.

د - الصناعة:

مارس السكان الصناعة التى كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت فى ولاية طرابلس الغرب صناعة المنسوجات والدباغة وكانت لها أسواقها الرائجة داخليا وخارجيا.

٣- مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى ليبيا خلال الحكم العثمانى:

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة فى المرحلة المعروفة باسم العهد العثمانى الأول وهى المرحلة التى تمتد من استرداد طرابلس من الإسبان ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القره مانلية، فتؤكد المصادر عدم الاهتمام بأى نوع من أنواع النشاط الثقافى والعلمى خلال هذه الفترة، وخاصة أن الحكام أنفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم وإنما كانوا فئة من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول إلى مراكز السلطة، وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى انحدار المستوى الفكرى بين الأهالى الذين سيطرت عليهم الخرافات، ومالوا إلى التصوف، والاعتقاد فى كل من ادعى الولاية بحق أو بغير حق، ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دورها فى نشر التعليم الدينى، وبالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد القره مانلى مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس فى إنعاش الحياة العلمية فى البلاد.

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثمانى الثانى فتنحصر فى جهود أحمد باشا راسم فى تطوير حركة التعليم والوقوف فى وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسية والإرساليات التى كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية وصبغها بثقافتها.

وقد اشتهر من فقهاء الإسلام فى طرابلس خلال هذه الفترة الفقيه أبى على الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسى، وأحمد بن عبد الحميد اليربوعى، كما تنحصر فى جهود نامق باشا الذى تأسست مدرسة الفنون والصنائع فى عهده، وصدرت فى عهده جريدة الترقى لصاحبها «الشيخ محمد البوصيرى» ومجلة الفنون لصاحبها «داود أفندى» وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التى كانت سائدة بين المثقفين فى ذلك الوقت، وعبرت إلى حد كبير عن المشاكل والقضايا التى تشغلهم وأسهمت بشكل واضح فى تطوير الحركة الثقافية فى البلاد.

وفى جهود الوالى حافظ باشا الذى شهد تطور التعليم فى عهده دفعة كبيرة إلى الأمام فأسس دارا للمعلمين، ومدرستين كبيرتين، ومدرسة للبنات، وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية فى بعض المناطق الليبية.

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاة العثمانيين بل قامت إيطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسة فنية تجارية عالية، ومدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين، وأخرى للبنات، وروضة أطفال للبنين وأخرى للبنات، وكانت للجالية اليهودية أيضا مدارسها.

وهكذا يتضح أن كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شئون ليبيا لم تؤت كلها بالمرجو منها ويرجع ذلك لعدة أسباب نذكر منها:

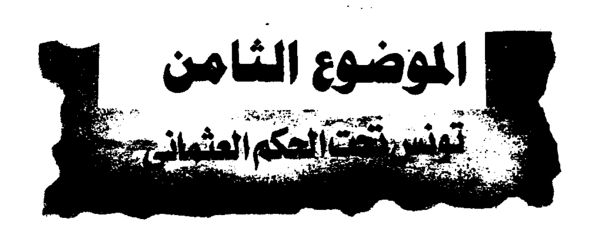
١- أن العثمانيين سيطروا على المناطق الساحلية فى ليبيا ولم يهتموا بالدواخل، وعلى هذا أهملت المناطق الداخلية ولم تلق من الحكومة العثمانية اهتماما واضحا.

٢- أن أغلب مدة الولاة العثمانيين فى ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالى.

٣- كثرة الحروب الداخلية وخاصة فى عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة وخاصة مرض الطاعون، وعدم نجاح الحكومة فى السيطرة عليه، وخاصة أن اهتمامها بالنواحى الصحية كان ضئيلا.

٤- الإجحاف فى فرض الضرائب على الأهالى، وسوء طريقة تحصيلها منهم.

هذا إلى جانب أن العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم فى ليبيا وخاصة أن أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين وخاصة أن بلادهم تعرضت للكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم، ومع كل ذلك فقد استفاد أهل هذه الولايات فى تقوية الحياة الدينية الإسلامية وخاصة أن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية، للمواطنين العرب المسلمين فشاركوهم فى الاحتفالات الدينية، ومراعاة الشعائر الإسلامية هذا بالإضافة إلى المحافظة على عروبة وإسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية.



كانت تونس الخضراء مقرا للولاة العرب فى المغرب، كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين.

وبعد أن أدار الفلك دورته، وكشر الزمن عن أنيابه تنازع تونس الفوضى، وأصبح الضعف والتفكك السياسى إحدى سماتها البارزة وخاصة بعد اعتلاء «محمد بن الحسن الحفصى» العرش فى عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته، وفى أعقاب وفاته تنازع الإسبان والعثمانيون السيطرة عليها، وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها.

وبعد أن دخلت الجزائر فى حوزة العثمانيين كان من الضرورى أن تكون وجهة الأسطول العثمانى تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين وخاصة أن الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة وطرابلس ضد المسلمين.

ونتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانونى أنه من أجل تأمين قواعد قواته فى البحر المتوسط، وترسيخ وجودها فى الجزائر لابد من السيطرة على تونس، وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين فى تونس قد لجأ إلى الآستانة طالبا المساندة العثمانية لاستعادة عرشه. وبعد أن هيأ السلطان الأمر لذلك استدعى «خير الدين بربروسا» إليه فى إستانبول فى عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، وعهد إليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدى الإسبان، وتحويلها إلى ولاية عثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس فى الاستيلاء عليها. وفى أعقاب حصول بربروسا على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان توجه بالأسطول العثمانى المؤلف من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندى إلى منطقة «بنزرت» فى غرب تونس حيث حظى هناك باستقبال طيب من الأهالى، ومن «بنزرت» توجه الأسطول العثمانى إلى منطقة «حلق الوادى» فى عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ودخل «خير الدين» بقواته إلى العاصمة التونسية التى تركها حاكمها «الحسن الحفصى» وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء. وفى أعقاب ذلك أعلن «خير الدين» نهاية حكم الحفصيين، كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية، ووجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثمانى مما قلب موازين الأمور، وزاد من حدة الصراع الحربى بين العثمانيين والإسبان الذين كانوا يدركون أهمية تونس العسكرية، وتحكم موانيها فى المواصلات البحرية فى منطقة البحر المتوسط، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، وقربها من إيطاليا، ومجاورتها لجزيرة مالطة. ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالى تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التى أدخلها فى بلادهم. ومن أجل حفظ النظام والأمن وزع «خير الدين» قواته فى كافة أنحاء البلاد. وبينما كان «خير الدين» يوطد سلطانه فى تونس لجأ «الحسن الحفصى» إلى «شارل الخامس» ملك إسبانيا طالبا العون ضد «خير الدين» والعثمانيين. وقد استجاب «شارل الخامس» لمساندة «الحسن الحفصى»، وكلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط.

وفى ذى القعدة ٩٤١هـ/ مايو ١٥٣٥م أقلعت حملة عسكرية مر برشلونة مكونة من ٤٥٠ سفينة، ٢٦٥٠٠ رجل، واتجهت إلى تونس حيث انضم إليها «الحسن الحفصى» بثمانية آلاف رجل وعلى الرغم من المقاوه الشديدة التى واجهتها قوات شارل فقد تمكنت من الاستيلاء على تونس، ؛ اضطر «خير الدين» إلى الانسحاب إلى الجزائر.

وبعد أن دخل «الحسن الحفصى» مدينة تونس أباح البلاد لعمليات السلد والنهب والانتقام لمدة ثلاثة أيام، وفى أعقاب ذلك وقع «الحسن الحفصى» مع «شارل الخامس معاهدة تخلى خلالها عن «حلق الوادى» و«قرطاجنة» و«مدن عنابة» و«بنزرت» و«المهدية للإسبان، كما منحهم حق الإقامة والتجارة وممارسة شعائرهم الدينية دون أى تضييق.

وبذلك أصبحت تونس تحت السيادة الإسبانية المطلقة، وتولى «الحسن الحفصى» حكم باسم شارل الخامس مما كان له أثره السلبى لدى العثمانيين ومجاهدى شمال أفريقية.

وقد رد «خير الدين» على ذلك بغارة مفاجئة على «جزر البليار» واستولى منها على ـ آلاف أسير وعاد بهم إلى قاعدته فى الجزائر.

وخلال ذلك ثار أهالى تونس على بنى حفص لتواطؤهم مع «الإمبراطور شارل الخامس واندلعت عدة ثورات داخلية ضدهم اضطر بعدها «الحسن الحفصى» إلى الرحيل عن تونس ط المساعدة من أوروبا، وفى هذه الأثناء ظهر قائد بحرى من العثمانيين هو «درغوث باشا» واستط أن يتخذ من طرابلس قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الدينى البحرى فى شمال أفريقية، واستو على ميناء قفصة فى عام ١٥٥٦م وتوغل فى الداخل حتى وصل القيروان واحتلها، وأقام فيـ حامية فى عام ١٥٥٨م، ولكن ظل الإسبان يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم الحفصيين.

وخلال ذلك رأى السلطان سليمان القانونى ضرورة الاستيلاء على مالطة نظرا لأهميتها الصراع العسكرى بين العثمانيين والإسبان حول تونس، فأرسل أسطولا ضخما يحمل ثلاثين أ جندى تحت قيادة «مصطفى باشا» لمحاصرة الجزيرة، ولكنه لم يتمكن من دخولها. فبعد حص أربعة أشهر تكبد العثمانيون خسائر كبيرة فى الرجال والعتاد، وارتدوا على أعقابهم.

واستمرت الأحوال فى تونس كما هى حتى تولى «علج على» أريكة الحكم فى الجزائر حملة لتخليص تونس من الحكم المتعاون مع الإسبان نجح خلالها فى هزيمة القوات الحفص ودخول تونس فى نهاية عام ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م حيث أخذ البيعة للسلطان العثمانى.

ونظراً لأهمية موقع تونس عمل «علج على» على تقوية حاميتها قبل مغادرته لها فترك بها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل موزعين على عدة كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم «أوجاق باشى» كما تم تعيين القائد «رمضان» حاكما عاما لتونس، وبعدها غادر «علج على» تونس متوجها إلى الجزائر فى رمضان ٩٧٩هـ/ ١٥٧٠م.

وبعد معركة ليبانتو البحرية ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م التى هزم فيها العثمانيون ودمر أسطولهم سارعت إسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت فى ذلك وخاصة أن حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية، كما استباح الإسبان «جامع الزيتونة» ونهبوا خزائن الكتب الموجودة به. ونتيجة لذلك أرسلت الآستانة أسطولا مكونا من ثلاثمائة مركب مشحونة بالجند، لاستعادة تونس وإحياء روح الجهاد بين أهلها.

وقد تمكن «سنان باشا» والقبطان «علج على» من استردادها فى عام ١٥٧٤م، وإبادة الحامية الإسبانية هناك، وإنهاء حكم الحفصيين المتعاونين معهم. وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحرير تونس من الإسبان، وإعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية.

وقبل أن يغادر «سنان باشا» تونس عمل على تنظيم شئونها؛ وكان من أهم تنظيماته توفير قاعدة عسكرية تتمركز بها فترك أربعة آلاف جندى إنكشارى ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد، كما كون فيها إدارة كانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها، وأعضاؤها من المجلس الذى يرأسه الباشا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشارى مكون من كبار الضباط والمسئولين، وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذى كان يطلق عليه الأغا أو الباى، وبعد أن نظم «سنان باشا» أمور تونس غادرها إلى إستنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البايات كان أشهرهم «عثمان باى» الذى حاول النهوض بالبلاد و«يوسف باى» الذى نهض بالنواحى التعليمية.

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشرا، ويتوارثها أبناؤهم أحيانا، وخلال الربع الأخير من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجة عن التنافس بين القادة على الاستئثار بالسلطة، وزاد من هذه الاضطرابات قيام حرب بين ولايتى تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم فى تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين.

وفى وسط هذه الاضطرابات تمكن «حسين بن على» أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم فى عام ١٧٠٥م وتأسيس الأسرة الحسينية التى حظيت بترحيب الأهالى وقواد الجند. وقد

استطاع «حسين بن على» أن يعيد هيبة الحكومة، ويقضى على نفوذ العصبيات المسلحة، وأنشأ جيشا قويا.

وتصرف البايات الحسينيون كمستقلين فى شئونهم عن الدولة العثمانية، فعقدوا المعاهدات وأعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان، واكتفى السلطان بالولاء الاسمى وبالدعاء له فى المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه.

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوروبية تعقد مع تونس علاقات تجارية وسياسية، وأخذ البايات يسيرون فى طريق الإصلاح.

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم فى الترف ومحاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية، وتراكمت الديون عليها. وعلى سبيل المثال نذكر أنه فى عصر «أحمد باى» ١٨٣٧-١٨٥٥ أنفق الكثير من الأموال فى بعض المشروعات العمرانية والإصلاحات، وفى عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى فى نهاية الأمر إلى التوسع فى الاستدانة، ووقوع تونس فريسة فى أيدى الدول الأوروبية وإقحام الأجانب فى شئون البلاد الداخلية بحجة القيام بالإصلاحات التى أرادها الباى، وإجبارها على إصدار ما يسمى «بعهد الأمان» الذى أعطت معظم نصوصه مزايا عديدة للأجانب منها حق العمل والملكية فى تونس. حقيقة أن هذا العهد شمل فى نصوصه العديد من المنافع، ولكن ضرره على التونسيين كان أكثر من نفعه.

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها فى منع قيام نظام فى تونس يهدد احتلالها للجزائر. وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها. فقد رغب المستشار الألمانى «بسمارك» فى إبعاد فرنسا عن التفكير فى هزيمتها فى الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الألزاس واللورين، وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج أوروبا.

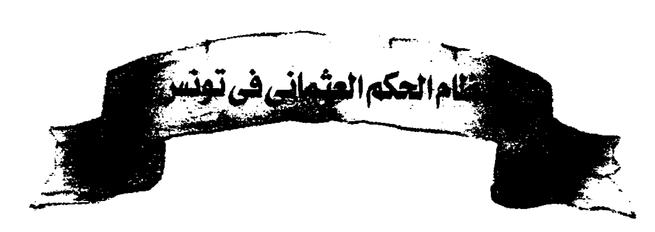
أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسى فى تونس وقاومته، وبدأت حملة دعاية قوية ضد فرنسا وخاصة أن تونس كانت محط أنظار الإيطاليين وخاصة أن هناك معاهدة بين إيطاليا والباى عقدت فى عام ١٨٦٨ كان من أهم بنودها صون مصالح الإيطاليين فى تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك يضاف إلى ذلك أن المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد على سبعين ميلا.

ولما بدا لفرنسا ضرورة الإسراع لاحتلال تونس بحجة أنها امتداد طبيعى للجزائر، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لضم تونس إليها. فأرسلت قواتها فى مايو ١٨٨١ إلى قرب العاصمة التونسية، وأعلنت أن غرضها هو إقرار النظام، ولكنها ما كادت تصل إلى العاصمة حتى أجبرت الباى على عقد «معاهدة باردو» فى ١٢ مايو ١٨٨١ والتى أعلن الفرنسيون

فى أعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة على الأمن ورعاية حسن الجوار. وإلى جانب ذلك فقد كبلت فرنسا تونس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسى فى تونس هو صاحب الكلمة العليا، وتولت فرنسا تمثيل تونس، ورعاية مصالحها فى الخارج.

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافق فى تونس، فانتشر الموظفون الفرنسيون فى المراكز الحكومية بتونس كما تحولت الكثير من الأراضى الزراعية إلى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين، وإلى جانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية، كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربى، وبحضارتهم الإسلامية وذلك بتأسيس نظام تعليمى يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية. ونتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية فى تونس فى شكل حركة إسلامية، وكانت «مدرسة الزيتونة» معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية، كما بقى مسجدها حارسا للتراث العربى الإسلامى بالإضافة إلى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا.

وظلت فكرة تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التى كان يرددها السلطان العثمانى «عبد الحميد» ملتقى أفئدة التونسيين، ثم تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن تونس والاعتراف باستقلالها فى ١٧ مايو ١٩٥٦.



تمت أول محاولة لتنظيم إدارة تونس على يد «سنان باشا» عقب فتحها عام ١٥٧٤م، وكان قاعدة هذه التنظيمات هو الجيش الإنكشارى. فقد ترك سنان باشا أربعة آلاف جندى إنكشارى فى تونس لحمايتها، وأسند حكمها إلى باشا تابع للجزائر بلقب أمير الأمراء. وكان «حيدر باشا» أول أمير لأمراء تونس وكان يسانده ديوان للمشورة. كما استحدث «سنان باشا» منصب أمير اللوا بهدف حفظ الأمن، وعين قاضيا للأحكام الشرعية، كما عين جابيا يلقب بالباى.

وإلى جانب ذلك فقد قسمت تونس إلى ولايات ومناطق عسكرية عين على رأس كل منها ولاة عسكريين. ولكن هذا النظام لم يستمر طويلا فسرعان ما سيطر الجند على الأمور، وقاموا

بذبح أعضاء الديوان وإنهاء حكم أمير الأمراء، واستحداث نظام الدايات الذى استمر قائما فى تونس حتى عام ١٦٤٠م، وبعدها استطاع أحد حكام الأقاليم وهو «مراد بك» أن يخضع حكومة الداى لنفوذه ويقوم بتأسيس «الأسرة المرادية» وأن يحصل على لقب باشا من الباب العالى. وقد ظلت هذه الأسرة تحكم تونس حتى عام ١٧٠٢ حتى تمكن «حسين على» أحد ضباط الإنكشارية من القضاء على هذه الأسرة، وتأسيس «الأسرة الحسينية» التى بدأ حكمها فى عام ١٧٠٥ واستمر حتى عاصر مرحلة الاحتلال الفرنسى لتونس ، ومما يذكر لهذه الأسرة أنها حافظت على الطابع العثمانى فى الحكم، من حيث الاعتماد على طبقة الإنكشارية، واتخاذ المذهب الحنفى مذهبا رسميا بدلا من المذهب المالكى الذى يتبعه معظم الأهالى.

وعن موارد الدخل فى تونس وطرق الصرف منها، فلم تفرض الدولة العثمانية على تونس أموالا تدفع لخزينتها كما كان يحدث مع باقى الولايات، بل كان كل ما يفرض عليها هو إرسال كمية من الزيت بقصد إنارة المسجد الكبير فى الجزائر.

وكانت الضرائب التى تجبى من الأهالى تستخدم فى الصرف على مصالح الولاية، وعلى أوجه الإنشاء والتعمير والرواتب والمخصصات، وتجهيز الحملات.

مظاهر الحياة الاقتصادية فى تونس خلال الحكم العثمانى:

تمثلت هذه الحياة فيما يقوم به السكان من أعمال الزراعة والصناعة والتجارة وبصورة عامة يمكن القول أن تونس كانت تعتمد على الزراعة أكثر من غيرها من الولايات الأخرى وخاصة أن طبيعتها المناخية وتربتها الصالحة للزراعة قد ساعدت على ذلك. وقد ارتبطت الزراعة فى تونس بطبيعة ملكية الأرض وتقسيمها؛ فكان هناك الأراضى الخصبة المحيطة بالمدن، وكان هناك الأراضى التى تصادر من القبائل وتمنح لكبار الموظفين، كما كان هناك الأراضى التابعة لقبائل معينة تمارس فيها نشاطها الزراعى والرعوى.

وكانت الحبوب والخضر والفواكه أهم منتجات تونس وقد ساهمت هذه المحاصيل بنصيب كبير فى حركة التجارة الداخلية والخارجية. فقد نشطت حركة التجارة بين الولايات المغربية وبعضها البعض.

وبالنسبة للصناعة فقد تميزت تونس بصناعة المنسوجات الحريرية والنقش على الرخام والجبس.

مظاهر الحياة العلمية والثقافية فى تونس خلال الحكم العثمانى:

شهدت تونس خلال العصر العثمانى نفس المظاهر التعليمية والثقافية التى كانت موجودة قبله، فقد تم الاهتمام بعلوم القرآن والفقه والسنة النبوية والأدب والنحو والصرف وكان لجامع الزيتونة اليد الطولى فى ذلك. كما شهدت هذه الفترة انتقال العلماء من منطقة لأخرى.

وكان نظام الكتاتيب النظام السائد خلال هذه الفترة وكان التلاميذ يتلقون فيه العلوم الدينية وأصول النحو واللغة العربية.

وكان يطلق على الكتاب فى المناطق الحضرية كلمة «مسيد» وهى تحريف لكلمة مسجد، وكان يوجد ذلك «المسيد» قرب الجامع وأحيانا يكون جزءا منه. ويوجد كل من المسجد والمسيد فى كل حى عند نهاية الشارع وتقاطع الطرق، ويكون على مكان مرتفع نظرا لرفعة شأن القرآن الذى يتعلمه التلاميذ فيه.

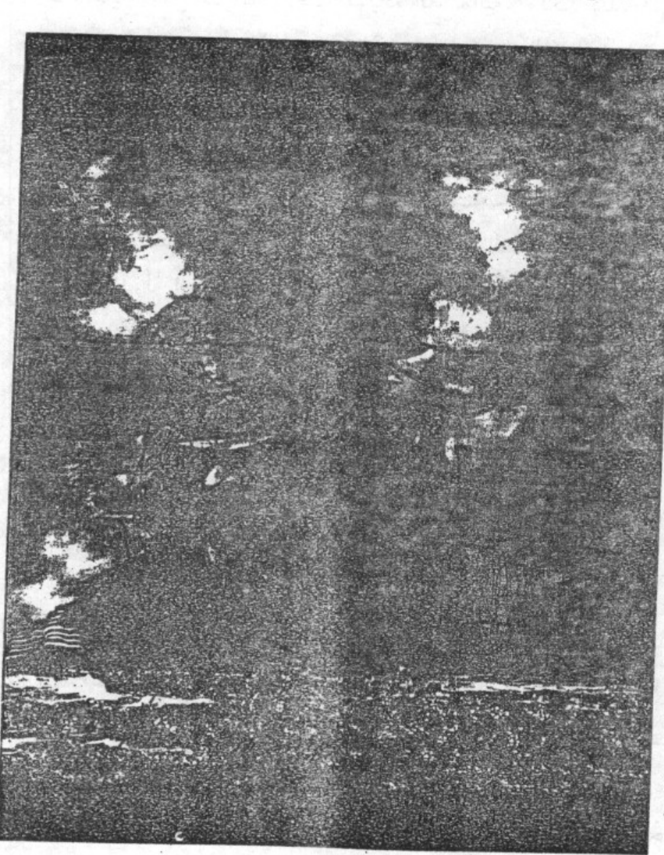
وإلى جانب ذلك فقد أسس الحفصيون فى تونس العديد من المدارس التى ساعدت على إحياء المذهب المالكى.

ومن أبرز علماء تونس خلال هذه الفترة «الشيخ محمد بن أبى الفضل خروف الأنصارى التونسى» (ت٩٦٦هـ/١٥٥٨م) ومحمد بن سلامة خطيب جامع الزيتونة فى تونس (ت٩٩٣هـ/١٥٨٥م).



إن مراكش ذلك القطر العربى الإسلامى الذى يحرس الجناح العربى فى الغرب من الوطن العربى تسلمت زمام الحكم فيه أسرة شريفة هى الأسرة السعدية منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن السابع عشر.

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين فى الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس، وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين وخاصة أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى، كما أنها تقترب من إسبانيا من ناحية بوغاز جبل طارق. فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التى حاولت إدماجه فى بقية أقاليمها كما حدث لبقية أقاليم العالم العربى، ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية، ووقفت بإصرار ضد الأطماع التى هددتها سواء من جانب العثمانيين أو الإسبان لفترة طويلة. وفيما يلى نعرض لأسباب ذلك.



السفينة الأمريكية

فبعد أن تأسست دولة الأشراف السعديين فى مراكش على أنقاض الأسرة الوطاسية، وتمكنت من تثبيت أقدامها هناك التمس «أبو حسون الوطاسى» مساعدة السلطان العثمانى «سليمان القانونى» الذى كان يدرك أهمية موقع مراكش، ويرغب فى وحدة شمالى أفريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والإسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا فى صراعه مع الإمبراطور الإسبانى «شارل الخامس».

ونتيجة لذلك أمر السلطان العثمانى بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع «أبى حسون الوطاسى». وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس فى عام ١٥٥٤م وإعادة حكم الأسرة الوطاسية» على مراكش تحت السيادة العثمانية، ولكن ذلك لم يستمر سوى بضعة أشهر حيث استطاع «محمد المهدى السعدى» استرداد فاس من العثمانيين.

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانضواء للسيادة العثمانية أمر السلطان سليمان القانونى بإرسال حملة لاستعادة فتح مراكش، وقد عهدت قيادة هذه الحملة إلى «صالح ريس» وكان من المتوقع أن تستقر الأمور للعثمانيين هناك وخاصة أن السلطان العثمانى سليمان القانونى كان يهدف إلى جمع الصف الإسلامى لتصفية الجيوب الصليبية فى مراكش وفى دخول الدولة السعدية فى تبعية الدولة العثمانية طوعا، ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافة السلطان العثمانى على أساس أن العثمانيين ليسوا عربا وإنما هم أعاجم، وبأن الشرافة فى مراكش يجب أن تكون لهم وخاصة أنهم يعتزون بنسبهم إلى الرسول ﷺ وازداد تطلع الباب العالى إلى ضم المغرب الأقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة «عبد الله الغالب بالله السعدى» (فى رمضان ٩٨١هـ/ يناير ١٥٧٤) وتواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالآستانة، ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص، ولجوء أعداء العثمانيين فى المغرب إلى سياسة التقرب من دول أوروبا الغربية قد حال دون ذلك.

وبعد معركة وادى المخازن فى ٣٠ جمادى الأول ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨ التى انتصر فيها «عبد الملك السعدى» على القوات الإسبانية اعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الأقصى، وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر فى المغرب، كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود، وتبادل الطرفان الرسائل التى تدل على حسن علاقات الجوار بينهما. وقد حرص السعديون على مواصلة الجهاد البحرى ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين، وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هى بداية حركة الجهاد التى رحب بها العثمانيون. فقد اتبع «أحمد المنصور» الذى حكم المغرب فى الفترة من ١٥٧٨-١٦٠٣ سياسة الجهاد الإسلامى لمواجهة

تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية، وذلك بنشر الإسلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر. وقد نشأت فى تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الاسمى لسلطان المغرب استمرت حوالى قرنين من الزمان.

وقد حاول «أحمد المنصور» فى حركة الجهاد البحرى ضد القوى الأوروبية المعادية أن يضرب القوى الأوروبية ببعضها فحاول التحالف مع إنجلترا وهولندا ضد إسبانيا ولكنه لم ينجح فى مسعاه وإن كان قد نجح فى عقد معاهدات معهما لتنظيم حركة الملاحة والتجارة.

واستمر الجهاد الإسلامى فى المغرب الأقصى فى عهد أسرة الأشراف العلويين الذى بدأ عام ١٦٦٦ ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية فى الأراضى المغربية فتم استرداد مدن «المهدية» و«العرانش» و«أصيلة» أواخر القرن السابع عشر واسترداد ميناء «طنجة» ومدينة «مزاغان» من يد البرتغاليين. وبالنسبة للدول الأوروبية التى لم تجاهر المسلمين العداء فعقد حكام المغرب معهم معاهدات تجارية، فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله - الذى استمر حكمه للمغرب من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٣م - مع دول شمال أوروبا ومع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٦، كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمتنع سفنها عن مهاجمة سفن الولايات المتحدة واستمرت الأمور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ وبرز التفوق البحرى الفرنسى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحرى الإسلامى فى المغرب إلى الانزواء.

وانتهى الأمر بقيام إنجلترا بعقد معاهدة مع الغرب فى عام ١٨٥٦ تضمنت نصوصها الحرص على تأمين الملاحة فى البحر المتوسط، والقضاء على عمليات الجهاد البحرى المغربى التى كانت تتركز نشاطها عند سواحل الريف. وزاد الأمر سوءا نجاح البحرية الإسبانية فى القضاء على السفن المغربية، والاستيلاء على مدينة تطوان. ومنذ ذلك الوقت تزايدت الأطماع الأوروبية فى المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها فى عام ١٩١٢.

مما سبق يتضح أن الحكم العثمانى لأقطار شمال أفريقيا الثلاثة الجزائر - طرابلس الغرب - تونس لم يكن كله إيجابيا ولا كان كله سلبيا. فقد استفادت هذه البلاد من الحكم العثمانى خلال مواجهتها للخطر الإسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا فى مالطة، واستفادت من تأخير الغزو الاستعمارى الأوروبى لها عندما كانت الدولة العثمانية قوية، كما استفادت من بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى النفوس وخاصة أن العثمانيين أبقوا أوضاع هذه البلاد كما هى ولم يقوموا بتتريكها، كما حافظوا على النظام الاجتماعى بها، بينما لم تستفد هذه البلاد حضاريا من الحكم العثمانى وخاصة أن العثمانيين لم يكن لديهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى الولايات العربية التى كانت تتمتع بحضارة تفوق ما لدى العثمانيين من حضارة، وبالنسبة لضعف نظام الإدارة فى هذه البلاد خلال الحكم العثمانى فقد كان لبعد المسافة التى تفصل بين تلك الولايات وعاصمة الدولة أكبر الأثر فى عدم إحكام الدولة لقبضتها الإدارية على هذه البلاد، وفى عدم تمكنها من حسم الصراع الذى كان كثيرا ما يحدث بين أفراد الأسر الحاكمة بل كانت تقوم بتسكين الأمور بدلا من حسمها.

وبالرغم من ذلك فقد اعتبر أهل شمال أفريقيا الدولة العثمانية بمثابة الإنقاذ الإلهى الذى جاء لمساندتهم فى مجابهة الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين قاموا بالإساءة لدينهم ووطنهم.

وبالنسبة لحركة الجهاد البحرى الإسلامى فقد أوضحت هذه الدراسة أنها لم تكن حركة قرصنة كما يدعى البعض وخاصة أنها كانت تهدف للدفاع عن النفس ضد قوى صليبية هى فى حالة حرب معها، وأنها كانت ردا على ما فعله الإسبان ضد مسلمى الأندلس، وردا على ما فعله البرتغاليون ضد البحرية الإسلامية فى أعقاب معركة ديو البحرية ١٥٠٩م والذين أثبتوا خلالها روحهم العدائية لكل ما هو مسلم، ومن هذا المنطلق كان لابد لأقطار المغرب العربى من اتخاذ الحذر والحيطة، وإعلان الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام خاصة الإسبان، والبرتغاليين، وفرسان القديس يوحنا، وكان لابد من دخول العثمانيين إلى هذه الحلبة لإعادة عملية التوازن بين المسلمين والصليبيين. يضاف إلى ذلك أن الوجود العثمانى فى ولايات شمال أفريقيا لم يكن وجودا عسكريا فحسب بل ترك ملامحه فى نظم الإدارة وأنماط حياة السكان وغيرها.

الموضوع العاشر

السلطان عبد الحميد الثانى وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بنى عثمان . ولد فى عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد فى ٢١ سبتمبرمن عام ١٨٤٣م ونشأ فى حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه(١) ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال فى الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم انتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زادا من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته فى الصغر عهد بحضانته إلى عجوز من نساء القصر، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برلستوخانم" حيث لم تكن تنجب أولادا فتبنته ، وأخذت فى تربيته .

ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان يتهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم فى ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجوارى(٢) ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة فى ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد فى العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما(٣) .

١- مؤلف تاريخى هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره فى الأقطار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، جـ٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخى هام : ص٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية فى عصر عبد الحميد أزمات متعددة استغلتها الدول الأوربية فى إثارة القلاقل داخلها خصوصا فى ولاياتها غير الإسلامية فحركت الفتن السياسية فى كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمسارعة فى إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت فى إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها[1] ، ورغبة منها فى تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية فى ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها فى تحقيق حلمها التاريخى فى الوصول إلى المياه الدافئة[2] كل ذلك أدى إلى تكوين تكتل مسيحى من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبى بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية فى المناطق التى اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد[3] .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هى جذب عواطف المسلمين إليه[4] ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ فى إحاطة نفسه بإطار من التقى والتقشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامى[5] . يضاف إلى ذلك انه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدنيوية ، ودفع مؤامرات أوربا عن بلاده ومن هنا بدأ فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشراف مكة إليه[6] ، كما اعتمد على الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى ، هذا إلى جانب قيام نامق كمال بتهيئة الأذهان فى أوساط المتحدثين بالتركية .

١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى جـ٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص١٦١ .

٢- محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص٧١ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص٧ .

٥- جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابى ،دمشق، مطبعة الترقى ص٦٧ .

٦- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقيادتها بصفته خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال فى إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعمارى الغربى الزاحف على العالم الإسلامى[1] .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدنية الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى فى حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز دينى لوحدة المسلمين[2] ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ – ضرورة التمسك بالخلافة كنظام دينى ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوربية التى اشتد ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامة، وأقاليم شمالى إفريقية ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوربية المالية والسياسية والعسكرية[3] .

٢ – إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها[4] .

٣ – الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دينية تؤصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة[5] .

وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضييق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ص١١٩٩-١٢٠٠ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ١٩٨٣م ص١١٩٥-١١٩٦ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٣٢ .

٥- الشناوى : المرجع السابق ص١١٩٥-١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم فى ذلك القرآن الكريم[1].

وفى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة الجامعة الإسلامية ظهرت فى أركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلبية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة فى الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرنؤط وعنى بتربية أبناء العشائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمى آسيا وأفريقية سواء فى الصين أم الهند أم أواسط افريقيا أم غيرها[2] .

وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافها واستطاعت أن تزعج بعض الدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتهما جهدا كبيرا فى سبيل مقاومتها ، وأدت إلى إحراج موقفيهما[3] ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش .

وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمام بتيسير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدى بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد – السورى الأصل والذى كان سكرتيرا ثانيا للسلطان عبد الحميد – هو الذى أدخل فى روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المسلمين فى مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبات فى ذهابهم وإيابهم[4] .

١- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٩-١٨١ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وقوة وضعفا حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد ،فتعثرت حركة الجامعة الإسلامية فى مسيرتها[١] خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقى للحركة الطورانية، وانسياق الشريف حسين بن على وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافة عربية ، وموقف المعارضة الشديد الذى اتخذه النصارى فى الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية[٢] .

١- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى جـ١ - ترجمة عجاج نويهـ[illegible] الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص٧.

الموضوع الحادى عشر

الدولة العثمانيـة خلال الحرب الأولى

وظهور أتاتورك

دخلت الدولة العثمانية غمار الحرب الأولى فى عام ١٩١٤م إلى جانب دول الوسط المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء المكونة من بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا . ويرجع أسباب انضمام العثمانيين بجانب ألمانيا إلى ما يلى :

١ – إن صفحتهم كانت بيضاء مع العثمانيين بعكس بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا التى اقتلعت أجزاء من أراضى الدولة العثمانية ، ومزقت إمبراطوريتها[١] واستهدفت تمزيق أركانها ، وضرب الشعوب الإسلامية عَقَديًا واقتصاديا . فروسيا القيصرية كانت ترمى إلى تمزيق تركيا وتعمل على انتزاع مضيق الدردنيل الذى يربط البحر الأسود بالبحر المتوسط منها ، كما كانت تسعى للاستيلاء على استنبول . وبريطانيا كانت تعمل على انتزاع العراق وفلسطين من تركيا ، وتوطيد أقدامها فى مصر[٢] وفرنسا كانت تريد بجانب استيلائها على الجزائر وتونس ومراكش الاستيلاء على الشام ، أما إيطاليا فبعد استيلائها على ليبيا فإن تطلعاتها تجاه ممتلكات الدولة العثمانية لم تتوقف .

٢ – تزايد المصالح الألمانية داخل الدولة العثمانية بشكل كبير خلال العقود القليلة التى سبقت وقوع الحرب فكانت هناك قروض ألمانية ، وسكة حديد برلين بغداد التى يتولى الألمان تنفيذها ، كما كان تحديث الجيش الألمانى يتم على أيدى خبراء من الألمان

١– عمر الديراوى : الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢ ص١٢٨ .

٢– هيئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى (حزب البلشفيك) ، بيروت ، منشورات الفارابى ، ١٩٥٤ ص٢٣٢ .

وبتسليح ألمانى[1] مما هدد سيطرة إنجلترا على منطقة الشرق الأدنى .

٣ – عروض ألمانيا المتعددة لحل مشاكل الدولة العثمانية جعل العديد من أعضاء الوزارة العثمانية يميلون إليها ويرغبون فى الوقوف بجانبها[2] .

٤ – إقحام أعضاء الاتحاد والترقى للدولة العثمانية فى حرب ليس لها فيها ناقة ولا جمل .

ومع أن الحكومة الإنجليزية قد بذلت جهودها لضمان حياد تركيا خشية انضمامها إلى ألمانيا وذلك بتقديم التزامات تتضمن استقلالها وعدم تجزئتها[3] ، فإن الحزب الحاكم فى تركيا كان يريد الانضمام إلى جانب ألمانيا .

ولكى تكسب الدولة العثمانية الوقت الذى يمكنها من الاستعداد لدخول الحرب بدأت فى مماطلة الحلفاء فى الرد على مطلبهم بخصوص الوقوف على الحياد فى الحرب ، وعرضت عليهم شروطها كى لا تنضم إلى الألمان ومنها :

١ – إلغاء الامتيازات الأجنبية فى أراضيها .

٢ – إعادة جزر الأرخبيل إلى السلطة العثمانية .

٣ – حل القضية المصرية .

٤ – وقوف بريطانيا وفرنسا ضد أطماع روسيا فى الدولة العثمانية .

وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الشروط جاء رد الحلفاء كما يلى :

١ – يرى الحلفاء إمكانية إلغاء الامتيازات الأجنبية عدا الامتيازات القضائية التى يكون فى إلغائها مساس بحقوق الأجانب القاطنين فى ممتلكات الدولة العثمانية .

٢ – يرى الحلفاء أن يترك طرح مناقشة قضية جزر الأرخبيل إلى وقت ملائم .

٣ – ترك حل القضية المصرية إلى ما بعد الحرب ، حتى يمكن حلها بطريقة مرضية لجميع الأطراف .

١- عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعى : التاريخ المعاصر – أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ، ص٤٤٣ .

٢ – المجموعة التاريخية المصورة : تاريخ الحرب العظمى ١٩١٤–١٩١٨م جـ٦ ، تصريح لطلعت باشا وزير الداخلية التركى تحت عنوان "موقف تركيا قبل إعلان الحرب" ص٢٢ .

٣- وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم – ترجمة محمد مصطفى زيادة جـ٧ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٩ ص٢٣٩٢–٢٣٩٣ .

٤ – تعهد الحلفاء بتأمين سلامة الدولة العثمانية وتأييد استقلالها[١] .

وعلى كل حال فبعد أن بدأت الدولة العثمانية فى استكمال استعداداتها حيث قامت بتعبئة نصف مليون جندى ، وتدريب حوالى ربع المليون[٢] ، أعلنت عن عزمها الاشتراك الفعلى فى الحرب إلى جانب دول الوسط ، كما أعلن السلطان العثمانى بصفته خليفة المسلمين الجهاد ضد الحلفاء فى كافة البلدان الإسلامية التى يسيطرون عليها ، وأصدر أوامره بمهاجمة الحلفاء فى الجبهات التالية :

١– الجبهة القوقازية الأناضولية .

٢– الجبهة البلقانية .

٣– جبهة الخليج العربى والعراق وفارس .

٤– جبهة قناة السويس والشام .

٥– جبهة اليمن[٣] .

وقد قام الأتراك فى بداية الحرب بأعمال حربية باهرة بمساندة الألمان[٤] فقام الأسطول التركى بضرب الموانى الروسية على البحر الأسود ، كما بدأت القوات التركية فى صد الزحف الروسى على القوقاز ، والتقدم نحو روسيا فى محاولة لتطويق جيشها[٥]، كما حاولت التقدم تجاه قناة السويس .

ثم تطورت الأمور فى ربيع عام ١٩١٥ فتجمدت الجبهة الألمانية الفرنسية بعد أن توقفت ألمانيا عن محاولتها للاستيلاء على الأراضى الفرنسية نتيجة لعدم التمكن من تحقيق أى انتصار فعلى ، كما تعرض الروس لانكسار شديد ، يضاف إلى ذلك قيام الإنجليز بتركيز ضرباتهم على الجبهة التركية ومحاولتهم احتلال شواطىء الدردنيل[٦] ، واستمر القتال هناك عدة أشهر ولكى يتمكن الحلفاء من وقف الدعوة إلى الجهاد التى أطلقها السلطان العثمانى ، وتشتيت شمل الصف الإسلامى قام الإنجليز بالاتصال

١– المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٤ تحت عنوان "الحلفاء يسترضون تركيا" ص٢٠–٢١ .

٢– المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .

٣– نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٤٨ .

٤– كارل بروكلمان : الإسلام فى القرن التاسع عشر– ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م ص٦٠٣–٦٠٤ .

٥– المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .

٦– أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم جـ١ ، القاهرة ، مطبعة الحلبى ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص٢١١ .

بالشريف حسين أمير مكة المكرمة ، وعرضوا عليه التعاون ضد الأتراك فى نظير وعودهم له بتخليص العرب من نير الحكم التركى[1] ، ونتيجة لذلك دخل الشريف حسين الحرب ضد الأتراك واستطاع الاستيلاء على معظم مدن الحجاز ، كما استطاعت جيوش الثورة العربية إحباط حملة تركية ألمانية اتجهت إلى الجزيرة العربية ، وحالت بينها وبين السيطرة على عدن[2] . أما عن جبهة العراق وفلسطين فقد كانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية محدودة ، خصوصا وأن الثورة العربية الكبرى كان لها أكبر الأثر فى الحد من قدرتهم على المواجهة حيث فصلت القوات التركية المتمركزة فى اليمن عن القوات الرئيسية فى الحجاز والشام وسقطت العقبة فى يد الإنجليز فى ٦ من يونيو ١٩١٧ ، والقدس فى ٩ من ديسمبر ١٩١٧م ثم تلى ذلك سقوط دمشق وبغداد[3] .

وعن جبهة الدردنيل فقد ظلت الحرب مستعرة ، ولم تكمل الغلبة لواحد من الطرفين ، وإن كان مصطفى كمال قد استطاع تملك زمام الموقف وتعبئة الروح المعنوية والقتالية لدى جنوده خصوصا بعد أن حل محل القائد الألمانى "ساندروس[4]" .

ونتيجة لخروج الدولة العثمانية من الحرب مكسورة الجناح ممزقة الأوصال فقد اتفق الحلفاء فى مؤتمر "سان ريمو" فى ابريل ١٩٢٠م على اقتسام البلدان العربية التابعة لتركيا فيما بينهم ، كما اتفقوا فى معاهدة "سيفر" على تقسيم أملاك الدولة العثمانية الأوربية فيما بينهم أيضا فأعطيت اليونان معظم أملاك الدولة العثمانية الأوربية عدا القسطنطينية وبحر مرمرة ، وجعلت القسطنطينية تحت وصاية لجنة دولية ، وأجبر السلطان العثمانى وحيد الدين على التوقيع على هذه المعاهدة[5] التى لو لو نفذت بنودها لكانت تركيا أثرا بعد عين مما جعل الرأى العام التركى يثور على السلطان وأدى إلى إبراز دور كمال أتاتورك ورجاله الذين تمكنوا من دحر القوات اليونانية وتفريق شملها ، يضاف إلى ذلك أن الانجليز الذين أرادوا أن يجعلوا من أتاتورك بطلا فى نظر الشعب التركى حتى يتمكن من القبض على زمام الأمور فى تركيا ويساعد على تحقيق مطالبهم انسحبوا فجأة وبطريقة مريبة من ساحل غاليبولى وتركت سفنهم الحربية مواقعها بسرعة

١- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص٨٥ .

٢- زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٥م ص٢٥٢ .

٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٦٩ .

٤- درابجيرت فون ميكوش : مصطفى كمال المثل الأعلى - ترجمة كامل مسيحه - بيروت ، المكتبة الأهلية ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص١٣٢-١٤٥ .

٥- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٩٠ .

مذهلة[١] مما أدى إلى استرداد الأتراك للعديد من المواقع وانتصار قوات أتاتورك[٢] . ونتيجة لذلك بدأ نجم أتاتورك في البزوغ وبدأ الناس يتحدثون عن شجاعته وبطولته ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لوزان ١٩٢٣م التي أبقت لتركيا الأناضول وأدرنة والقسطنطينية وأخرجت ما بيدها من البلدان العربية[٣] .

وفي أعقاب ذلك أعلن مصطفى كمال فصل السلطنة عن الخلافة ثم قام بانقلاب ضد السلطان وحيد الدين ، وعزله بالقوة وأحل محله خليفة عثماني آخر وهو السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز في عام ١٣٤٠هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م ، وفي أعقاب ذلك بدأ التخطيط لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة ، فقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية ، وتم اختياره رئيسا لها[٤] . وفي عام ١٣٤١هـ الموافق أول مارس ١٩٢٤م قام مصطفى كمال بدعوة المجلس الوطني ، وتقرر فيه طرد الخليفة وإلغاء الخلافة ، وفصل الدين عن الدولة ، والأخذ بالقانون المدني السويسري ليكون بديلا عن القانون الإسلامي في الأحكام الشرعية[٥] ، ونقل عاصمة الدولة إلى أنقره ، ونتيجة لذلك غادر السلطان عبد المجيد آخر خليفة عثماني تركيا إلى سويسرا[٦] ، كما ألغيت الوظائف الدينية والشرعية ، وأصبحت الأوقاف ملكا للدولة مما أثار موجة عنيفة من السخط والغضب في كافة الأوساط الإسلامية .

وهكذا زالت الدولة العثمانية من الوجود ، وأصبحت أثرا بعد عين .

١- علي حسون : الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى .

٢- دا جوبرت فون ميكوش : المرجع السابق ص١٣٧ .

٣- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ص٣٢٦-٣٢٧ .

٤- محمد محمد توفيق : كمال أتاتورك ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٣٦ ص٣٩ .

٥- محمود شاكر : مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا - تركيا ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ص٤٥

٦- محمد توفيق : المرجع السابق ص١٤٠ .

الموضوع الثانى عشر

الدولة العثمانيـة ما لها وما عليها

من المعروف أن لكـل دولـة مزايا تذكـر لهـا ، ومـآخذ تسجل عليهـا وأن المـؤرخ الصـادق هـو بمثابـة القـاضى الـذى يحكم بالحيثيـات وشـهادة الشـهود ، لذلـك فليـس مـن الموضـوعية إغفال مزايا الدولة العثمانيـة والاقتصـار علـى تسـجيل عيوبهـا أو العكـس بـل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .

ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات هو فى الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة مـن مراحـل تـاريخ العرب الحديث ولا سيما فى الشرق الأدنى[1] . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولـة أجنبيـة أو مغتصبـة أو مستعمرة لبلادهـم إلا فـى بدايـة القـرن الحـالى ، خصوصـا وأن العثمـانيين مسلمون ، والدين السائد فى البلاد العربيـة هـو الإسـلام ، كمـا أن الدولـة العثمانيـة حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للممـاليك فـى موقعتـى مـرج دابـق والريدانيـة ، ونقـل الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول[2] .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة ، وهى المرحلة التى شيد فيها العثمـانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوربـا وافريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلـو مـن الشـعور بـالقوة والتفـوق علـى مـن عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعـم بتفوق عسكرى كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكـل أفرادها – حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ – يعد محاربـا عنـد الحاجـة ، وهـذه الفـترة يمكـن أن تتوقـف عنـد مـوت السـلطان سـليمان القـانونى ١٥٦٦م ومرحلـة الضعـف

١- محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثمانى جـ٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص٨.

٢- للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فـى وقـائع الدهور جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببولاق ، ١٣١٢هـ ص١٢٠ ، ص١٤٧ .

وهى التى تميزت بالهزائ العسكرية المتلاحقة التى برزت منذ هزيمة كارلويتز Karlovitz[1] ١٦٩٩-١٧٠٢م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين[2] . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من من آل عثمان كانت فى الواقع لهم أياد بيضاء فى رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة. كما تحمل الأواخر منهم مسئولية المصير المؤلم الذى آلت إليه الدولة فى عهدهم ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها[3] .

فمن المعروف أن العثمانيين فى فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء ، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولا[4] حيث كان الدين والدولة عندهم شيئا واحدا ، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان فى أى تحرك منهم أو عليهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التى لم يطأ إليها قدم مسلم من قبل[5] ، مما كان له أثر طيب فى نفوس المسلمين ، ففى القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزينات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء فى الأناضول أم فى أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوربيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة

١- تنازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترنسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.

٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية ١٨٠٣م – تحقيق خالد زيادة ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٦م ص١١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية د . ت ص٩ .

٤- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠م ص١٠ .

٥- ول ديورانت : قصة الحضارة – ترجمة عبد الحميد يونس ، جـ٤ من المجلد السادس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص١٠٩ .

"أدرنة" ١٣٦١م(١) وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التى عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوربا(٢) .

وباسم الإسلام استولى الجيش العثمانى على العديد من مدن شرق أوربا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التى تم الاستيلاء عليها فى عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م(٣) .

وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية فى البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثمانى(٤) .

وباسم الإسلام فتح محمد الثانى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش(٥)" ذلك الفتح الذى يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط فى تاريخ العثمانيين(٦) بل وفى تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول(٧) بمعنى عاصمة الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى(٨) ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية فى الأناضول ، وتحويل آسيا الصغرى كلها

١- أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢ - ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨م ص١٨٧.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٤٨-٥٠ .

٣- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص٣٤ .

٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص٤٢٧-٤٢٨ .

٥- ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضا جلال الدين السيوطى: الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٤٠٢ رقم ٧٢٢٧.

٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩ .

٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والآستانة .

٨- منها مسجد "أبو أيوب الأنصارى" انظر دليل الأستانة ص٣ .

إلى مناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما مما أزعج العالم المسيحى كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم في عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامى فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول(١) .

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين ، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها(٢) .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد وردس وبودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوربا(٣) .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قانصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد ، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذا للأماكن الإسلامية المقدسة(٤) ، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معا ضد البرتغاليين(٥) .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبى الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص١٤ .

٣- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص٢٥٥ .

٤- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ص٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانى اليمنية – خصوصا عدن – خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى افريقية(١) .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول(٢) ، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز – وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة – حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحى ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضا خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزا دينيا مرموقا ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والاشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماما خاصا فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة(٣) .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٢١ .

٢- رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص٣١ .

٣- مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية : قدسية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور الصفصافى المرسى تحت عنوان "قوافل الحج فى الدولة العثمانية" ص٦٣-٦٤.

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين[1] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها فى أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصا بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر ، أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبى الحديدة فى اليمن ، وكانت ذريعتها فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية[2] ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر[3] ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت فى وجه الزحف الصليبى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات .

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى افريقية فى الصراع الصليبى مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى افريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين[4] حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبى على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانونى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها[5] وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية[6] حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .

٤- عبد الكريم رافق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .

٦- المجلة التاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيدونى تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس[1] ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى[2] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسرا على الدخول فى مذهبهم ، ولا يترددون فى إفناء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السنى[3] .

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثمانى سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادى جالديران[4] فى أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين فى جالديران ودخول عاصمتهم تبريز[5] فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتى ديار بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعى فى الأناضول[6] والعمل على انحساره فى العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السنى من خطر الزحف الشيعى الذى كان الشاه اسماعيل الصفوى يأمل فى نشره فى كافة أنحاء المشرق العربى والقضاء على المذهب السنى . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعا عن العراق الذى كان الفرس يتطلعون إليه دائما ، ويرغبون فى صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف[7] . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد[8] فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعى فى فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١٢٧ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٢-٣٣ .

٣- أحمد الساداتى : المرجع السابق ص١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بأذربيجان .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفا من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٥ .

٨- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

سيطرتهم[1] ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة التقليديين للمذهب السنى .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات فى الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة فى شمالى افريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة[2] .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرمانا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: **"وكلم الله موسى تكليما[3]"** ، وقال : أيضا **"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه[4]"** .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الانجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع[5] هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، والتى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها[6] .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين ، ونائب رسول الله صلى الله

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٥ .

٢- جلال يحى : المغرب الكبير جـ٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٦ .

٦- توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا[١] . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها ، وانقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين[٢] .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين[٣] رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم[٤]" .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رءوف باشا المشهور بشدته متصرفا على القدس[٥] . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان[٦] .

كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثالبها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢م ص٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثانى : مذكراتى السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٦- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٧٥-٩٧٩ .

الواقع أن هناك العديد من المآخذ التى أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثمانى سواء فى داخل مقر السلطنة أو فى الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هيبة العلماء ، والمآسى التى ارتكبت فى أواخر الحكم العثمانى ضد العرب خصوصا بعد ظهور النعرات القومية كالطورانية أو غيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ – عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تتحمل الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطيين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا فى صراعهم من أجل البقاء، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم[١] ، كما استنجد الغرناطيون بالسلطان بيازيد الثانى ١٤٨٠–١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة[٢] .

٢ – التنازع على وراثة العرش وتنافر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير فى استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما فى الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان فى حاجة إلى انتظام ففى الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال العرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن اخوة السلطان وأبناءهم الذين يخرجون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتنمون الفرص للخروج على السلطان أملا فى استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة باخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث فى عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣–١٦٢٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيه[٣] ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق فى أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التنافر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتى غالبا من زوجات السلطان اللاتى أنجبن أولادا منه رغبة فى أن يكون

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيازيد الثانى أرسل أسطولا لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخيا. انظر ستانلى لين بول : الدول الإسلامية – ترجمة محمد صبحى فرزات – القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص٦٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٧ .

ابنهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الذى يصل إلى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء فى قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا خول بمقتضاه السلطان الذى يتولى العرش بأن يقوم بقتل اخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومى[1] ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة فى سجل القوانين بقوله "إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فى إعدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح فى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سيئة أخرى من سيئات هذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة[2] .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟! ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عونا لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بخلع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول[3] .

٣ – زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالتزوج من النصرانية أو اليهودية طبقا لقوله تعالى: **"اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين[4]"** .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكتابيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكتابيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فانه سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت قصور السلاطين آهلة بالجوارى والسرارى الأجنبيات اللاتى تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى الواقع لن ينسين أوطانهن الأولى ولا قوميتهن السابقة فاستغللن وضعهن فى القصر السلطانى واهتممن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية[1] . وقد أوتين من الدسائس ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى تفسخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها[2] ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانونى ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحى[3] ، يضاف إلى ذلك انه كانت له محظية شركسية تعرف باسم "وردة الربيع" أنجبت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، ودربه ليكون وريثا للعرش[4] ، ثم فجأة شغف بروكسلانه الروسية التى انتزعته من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة – شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم[5] – أوغرت فيها صدر أبيه عليه ، وعين ابنه سليم من روكسلانه وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر[6] .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم[7] . وسار من جاء بعده من السلاطين على منواله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ الفساد يدب فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن معرفة أحوال قواتهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التى لا تريد أن تصل إلى مسامعها[8] .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٠ .
٢- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٣ .
٣- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٧ .
٤- نفسه ص١٢٦ .
٥- ألقت روكسلانه فى روع زوجها سليمان أن ابنه نصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما اتهم رستم باشا مصطفى بأنه يتودد سرا إلى الانكشارية ليقفوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الشك يساور السلطان فأمر بقتل ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص١٢٧ .
٦- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٦١٧ .
٧- نفسه : ص٦١٤ .
٨- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٢٢ .

٤ - الاعتماد على الانكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية فى عملية التجنيد علـى جمـع أبنـاء العـائلات الأرثوذكسـية خصوصـا من البلقان فكانت ترسل وكلاءهـا إلـى هذه المنـاطق حيث يطلبـون مـن قسـيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذى قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويتحركون بهم إلـى الآسـتانة حتـى تنقطـع صلاتهم بذويهم نهائيـا[١] . وقـد عرفـت هـذه العمليـة باسـم "الدفشرمه[٢] " Devshirme أو ديوشيرمه وهى كلمة تركية تعنى ضريبة الغلمان .

وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونـوا فـرق مشـاه فـى الجيـش العثمـانى وأطلـق عليهم الانكشارية[٣] . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسى فى الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها فى الحرب ، ولما أخذت الدولـة العثمانيـة تمـر فـى مراحـل الضعـف تـرك الحبل على الغارب لزعماء الانكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عـن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئـا ثقيـلا علـى السـلاطين أنفسـهم خصوصـا بعـد أن صـار بمقدورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم[٤] . يضـاف إلـى ذلـك قيـامهم فـى العديـد مـن المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالى ، وإشعال النـيران فـى ممتلكـاتهم واقتحـام المنـازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين[٥] والتدخل فى سياسة الدولة العليـا، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثوراتهم ، وإهمال الصـلاة ، وشـرب الخمر[٦] ، واستمرت الأحوال على ذلك حتـى تمكـن السـلطان محمـود الثـانى مـن القضـاء عليهم بقتل أغلبهم فى ٩ ذى القعده من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ مـن يونيـو ١٨٢٦[٧] دون أن يجد البديل الذى يستطيع حماية أراضـى الدولـة العثمانيـة والدفـاع عنهـا ضـد أعدائهـا .

١- لتفاصيل ذلك انظر :
H. Gibb and H, Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

٢- عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص٤٢ .

٣- معناها الجنود الجدد ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هـؤلاء الجند ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهـم هـذا الشـيخ بـالنصر علـى الأعـداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيـش الجديـد ثم حـرف هـذا الاسم فـى العربيـة فصـار انكشـارى . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٢ . انظـر أيضا توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص٤٢ .

٥ – عدم مسايرة الدولة العثمانية للتطور فى أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها فى الحكم والادارة فظلت أنظمتها جامدة فى حين أخذت أوربا فى تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوربية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية(١) فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية لبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة فى أوربا مما جعل الفجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ – الاعتماد على غير المسلمين فى تسيير أمور الدولة العامة :

لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم فى جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الادارية فى الحكومة العثمانية(٢) ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨–١٤٠٣م قد ولى الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالى اعتمد فى اختيار وزرائه على الأوربيين حديثى العهد بالإسلام لا سيما الألبان(٣) . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا ليهود الدونمة بتولى الوظائف الهامة فى الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة فى حين كانوا فى الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ –المآسى التى ارتكبها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المآسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا فى كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١– الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص١٨١٠–١٨١١ .

٢– ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٢ .

٣– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن اياس الذى قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام "إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر(١)" . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ، وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها(٢)" . يضاف إلى ذلك "أن ابن عثمان كان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها وفى هذه المدة يقتل العسكر خلقا فى المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى الجمعة إلا قليلا . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة"(٣) .

وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مفاسد الجند العثمانى بقوله "يأكلون ويشربون جهارا فى نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه(٤)" .

وأوضح محمد الادريسى – أمير منطقة المخلاف السليمانى – مفاسد الأتراك العثمانيين بقوله إنهم كانوا "يستبيحون الحرم ، وينتهكون الأعراض ، ويتجاهرون بالمعاصى والخروج عن الحدود التى حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين فلا الصلاة يؤدون ولا الشهر يصومون ، ولا هم فى حكمهم يعدلون"(٥) . كل ذلك جعل الأهالى ينفرون منهم، كما ذكر الادريسى أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة ، ويحتقرون العرب ولغتهم هذا بالاضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين(٦) .

١- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٤٤ .

٢- نفسه جـ٣ ص١٣٣ .

٣- نفسه جـ٣ ص٨٢-٨٣ .

٤- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ٤ ، القاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢هـ ص٢٢٨ ، ٣١٠ .

٥- محمد الادريسى : هذا بيان للناس وموعظة للمتقين ، رسالة إلى صديق له فى مصر بتاريخ ٦ ربيع الثانى ١٣٣٠هـ .

٦- نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الادارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أي باعث حقيقي لإسعاد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة فى كافة الأوساط الحكومية لدرجة انه كان هناك سماسرة للوزراء خصوصا فى أيام عبد الحميد الثانى ينتشرون فى الولايات ، ويعقدون الصفقات فى شئون الدولة[1] مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت فى نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالى بالولاء للدولة العثمانية[2] .

ومن مساوىء أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلى : -

١ - أن الوالى الذى كان بمثابة نائب السلطان فى البلد الذى يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التى تتطلب متابعة متوالية لإتمامها[3] .

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذى كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة لتبنى موظفى الادارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الادارية والمدنية والامتيازات والرتب فى المزاد العلنى ، وساد الاستهتار بين موظفى الدولة والجند الذين فقدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التى كانت قد بدت واضحة عليهم فى المراحل الأولى من الحكم العثمانى ، فالباشا الصالح فى نظرهم هو الذى كان يرسل المبالغ المعينة التى تتطلبها خزانة السلطان ، وكانت هذه هى أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم فى مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالإضافة إلى تكوينهم للثروات الضخمة[4] .

٣ - تركيز السلطة فى أيدى بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية[5] .

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالى ما يفوق الأموال التى

١- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٤ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٦-٣٧ .

٣- جلال يحي : العالم العربى الحديث ، الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٢٧ .

٥- نفسه : ص١٢٦ .

كانت تطلبها الدولة . فكان الملتزمون كثيرا ما يقترضون الأموال من مصارف استنبول بربا فاحش بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشاوى للمسئولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا فى ابتزاز الأموال من الأهالى فكانوا يفرضون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيديهم فى ممتلكات الأهالى ، ولا يتورعون عن المصادرات، واتهام الأبرياء بالجنايات بغية ابتزاز الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والاقطاعات من جراء المظالم التى ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالى فى شراك الفقر والمظالم[1] ، ويااليت الأمر اقتصر على الأحياء ، فقد قرر رجال الدستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى[2] .

٥ – عدم اهتمام العثمانيين بنواحى التعليم الصحة والعمران فى البلدان العربية خصوصا وأن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهى ان للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهى الدفاع عن ولاياتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو النواحى العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسئوليتها وتتركها للأفراد والجماعات .

وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التى حكمت العالم العربى حوالى أربعة قرون لم تترك فيه أى أثر من الآثار العمرانية الكبيرة يذكره التاريخ لها فلم تهتم بالمرافق ، ولم يهتم الولاه العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسور جديدة ، بل جفت بعض الترع القديمة لعدم تطهيرها ، وانهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التى كانت قائمة قبيل الحكم العثمانى ؛ يضاف إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على أنشطة العرب فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جمودا بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعا وبصورة جدية لضرب المعاقل البرتغالية فى الخليج العربى والهند إلا بعد نصف قرن من الزمان[3] تقريبا هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما فى القلعة وأكثر ما فى منازل السلاطين والأمراء المماليك من الذخائر والنفائس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله: "وأشيع أ ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٧–٤٨ .

٢– كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالات وللتفاصيل انظر أحمد السباعى : تاريخ مكة جـ١ ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥٦٠ .

٣– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٤٤٦–١٤٤٨ .

محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر[1] "

يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الآستانة[2] حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة[3] .

٦ - تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هيبة العلماء :

خلال الحكم العثمانى للعالم العربى ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد فى العصر العثمانى حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول الفقهاء فيما يتعلق بالشريعة والخلافة والإمامة ونظم الحكم بل انحطت هيبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد فى سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولى هذه المناصب[4] . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة فى دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية[5] ، وانتهى الأمر باستغلال الارساليات التنصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية فى العالم العربى .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح فى دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى تعد دعوته أولى الحركات الإصلاحية فى الوطن العربى ، والتى بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ - تدهور الحركة العلمية فى العصر العثمانى :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية فى البلدان العربية إبان الحكم العثمانى فلا نكاد نجد فى العصر العثمانى مؤلفات تتمتع بشىء من الأصالة العلمية وبالتالى لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكى مثلا فقد انكب العلماء فى العصر العثمانى على تأليف الملخصات ووضع الحواشى على الحواشى وتخيل غرائب المسائل

١- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٣٣ .

٢- نفسه ص١٢٢ .

٣- الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانونى قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١١ ، ٢٦٧ .

٥- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠ ص٣٩٦ .

النحوية والفقهية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .

ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنت الروح العلمية فيما تبقى منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المالية من جهة أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمى قد سيطرت على البلدان العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها[1] ولكن هل هذا يعنى أن نلقى اللوم كل اللوم على العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم تقع تحت طائلة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فانه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية الأخرى التى دخلت تحت الحكم العثمانى مما يوضح أن الأوضاع التى خيمت على البلدان الشرقية فى ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذى انتاب رجالاتها كان لها الدور الأكبر فى ذلك .

٨ – إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :

فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبا وقتلا ، ويسومونهم سوء العذاب دون أى رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم فى مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم[2].

ومما زاد الطين بله انه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن على ضد الأتراك فى شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجياد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها ، وفتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب[3] .

وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع فى الأرض ، ومهما برر البعض الأعذار لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١– أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦–٩٢٢هـ / ١٥٠٠–١٥٢٠م ، دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٩٣–١٩٥ .

٢– إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثانى ص٧٥–٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ، ١٣٦٧هـ/١٩٧٧م ص١١٦ .

٩ – الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأوربيين فى البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هى صاحبة الأمر والنهى فى تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوربية تم استغلالها فى فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيرا تعسفيا ، كما أخذت دولهم تتدخل فى شئون البلدان الإسلامية مستغلة فى ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع[1] .

١٠ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطانى لمصر :

كان لتخبط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر فى تعقدها وضياع استقلالها ومن أمثلة ذلك التخبط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك فى مؤتمر الأستانة فى عام ١٨٨٢ الذى تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أبعد الدولة العثمانية عن المشاركة فى تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقا فى أيدى الدول الأوربية[2]. يضاف إلى ذلك أنها ترددت فى اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العرابيين والخديو ، كما ترددت فى إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت فى اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الانجليز ثم زادت الطين بله بإصدارها منشورا بعصيان عرابى مما قلب ميزان الحماس الشعبى ، وأضاع التأييد الإسلامى للثورة العرابية، وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين ، وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر[3] .

١١ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسى للجزائر :

تباطأت الدولة العثمانية فى ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأديب داى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فانها قررت عدم التدخل فى القضية فى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٧٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون "موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية" والمنشور فى العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت منهمكة فى إخماد ثورة المورة القائمة ضدها[1] . ونتيجة لذلك انفردت فرنسا بالجزائر ، وقامت باحتلالها فى عام ١٨٣٠م .

١٢ – عدم مسايرة العثمانيين للتطورات التى حدثت فى أوربا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربى عن التطور العالمى الذى بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربى بحجة حمايته من الغزو العسكرى الأوربى. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجارى بين العرب والأوربيين[2] ولكنها أبقت العالم العربى على حالته التى كانت موجودة قبل فتحها له . وفى الوقت الذى تطورت أوربا فى مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذى بدت آثاره واضحة فى أوربا مما أدى إلى تخلف العالم العربى عن ركب هذه النهضة ، وإضعاف ثقته فى نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربى يعيش فى حالة من الجمود فى ظل الحكم العثمانى جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقى ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية ، وتعصبها للحركة الطورانية التى تستمد أساسها من التركيز على انتساب الأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركى وتمجيده ، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تتريك العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى المدارس والمحاكم والدواوين[3] ، مما أدى إلى نفور العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك فى صبغهم بالصبغة التركية .

ولما ألغيت السلطنة وجاء أتاتورك اتخذ من الاجراءات التى باعدت بين الدولة والإسلام عموما ، ومن هذه الاجراءات إلغاء الخلافة ، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية[4] ، وإلغاء القانون الإسلامى وتبنى قانون الأحوال الشخصية العلمانى ، وإلغاء التقويم الهجرى ، واستبدال العطلة الاسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد فى جامع آيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف[5] .

١- أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧–١٨٤٧م – ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمى ، تونس ، الطبعة الثانية ص٢٤–٢٥ .
٢- سيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨–١٦٣٥ ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٤٤٢ .
٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٢٢٨ .
٤- نفسه جـ١ ص٨٥ .
٥- للتفاصيل انظر على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ص٢٢٧–٣٠٠ .

الخاتمة

وهكذا تعرضنا لسلطنة آل عثمان التى استوفت قسطها من الحياة بما فيها من رقى وهبوط ، وإساءة وإحسان فاستعرضنا خدماتها للإسلام والمسلمين خلال فترة قوتها وما وقعت فيه من أخطاء وتخبط أودى بالعالم الإسلامى إلى الكثير من المشاكل والأطماع الاستعمارية وذلك خلال فترة ضعفها .

ولكى تتضح الحقيقة ينبغى أن نذكر أن تخلف العالم العربى خلال فترة الحكم العثمانى لم يكن مسئولية العثمانيين وحدهم ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى متعددة يعود بعضها إلى أوضاع العالم الإسلامى نفسه ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين مدينون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ فهو أساس دولتهم وحضارتهم وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون .

فهرست